سلسلة التفسير الأصوليّ

الكتاب الثاني

الأمة الناكثة

التبديل والاستبدال

د. محمد بن بشر القباطي

mhmdalqbty1@gmail.com

1442هـ-2021م

كوالالمبور

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة:

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيّد المرسلين، ربّي اشرح لي صدري ويسّر لي أمري، اللهمّ علّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علّمتنا وزدنا علمًا، وبعد، فإني على يقين بأن ما تحتاج إليه الأمة من حلول لأزماتها ومشكلاتها في العبادة، والسيادة، والريادة للنهوض والتقدّم موجود بين دفتي المصحف، وأن دور المفسّر هو وضع المصحف بين يدي الناس؛ ليدّبّروا آياته بعد أن اتخذه كثير منهم ظهريًا.

وها أنا أنشر هذا التفسير منجّمًا بما تيسّر من الفوائد تأسِّيًا بنزوله منجّمًا؛ لينتفع به طلاب العلم، وهذا هو الكتاب الثاني من سلسلة التفسير الأصوليّ، وقد أفردته لقصة بني إسرائيل، وأوضحت مواطن الخلل في سيرتهم، وكيف نقضوا العهد والميثاق؛ فانتزع الله تعالى منهم ميراث النبوّة والإمامة، وأورثها خير الأمم، وقد بيّنت ما فيها من عبر وعظات، سائلًا الله تعالى الهدى، والسداد، والإنعام، والإكرام، وأن يتقبل منّي هذا العمل بقبول حسن، وأن يمنّ علي بإتمام هذا التفسير إنه على كلّ شيء قدير.

اللهـمّ علّمنـا مـا ينفعنـا، وانفعنـا بنـا علّمتنـا، وزدنا علمًـا. والحمـد لله رب العالمين.

كتبه: د. محمد بن عبده بن محمد بن بشر القباطي

كوالالمبور

30 رمضان 1442هـ

2021/5/12

قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾[1].

ينادي ربّ العزة بني إسرائيل خاصّة، ويخاطبهم كفاحًا خطابَ حضور:

المتكلِّم: هو الله عزّ وجلّ.

والمخاطَبون: هم بنو إسرائيل وحدهم، وفي هذا الخطاب تقريب وتأليف وترغيب، فيأمرهم بذكر نعمه، والوفاء بعهده، واتباع الهدى، والدخول مع العالمين في كنف المنهج الجديد تحت لواء خاتم المرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام، فيخاطبهم بأحسن خطاب، وأقوم برهان، ويتلطّف بهم ويترفّق، ويزيل ما يحول دون سلوكهم سبيل الهدى من الشبهات والأهواء، فيكشف لهم ما كان يصنعه المبطلون والمتاجرون بالدين، ويبيّن لهم سبيل الرشاد على أتمّ وجه.

وقد ورد خطابهم عقب قصّة آدم عليه السلام، وهي قصّة يلتقي عندها بنو آدم جميعًا في صعيد واحد: الأب واحد، والوظيفة واحدة: الخلافة في الأرض، والعدوّ واحد، ومنهج النجاة والفلاح واحد: اتباع الهدى بقطع النظر عن كونه خاصًّا لكلّ قوم هدى أو عامًّا، "فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"، ومصير المعرضين واحد: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"، وفي ذكر قصّة آدم تهيئة للناس أجمعين لاتباع نبيّنا محمد عليه الصلاة والسلام المبعوث رحمة للعالمين!

ومع ذلك فقد اختصّ بندائه بني إسرائيل الذين يعتقدون أنهم على هدى ممّا بقي لديهم من ميراث رسلهم عليهم السلام، فهم الأقدم في وراثة علم الكتاب والرسالات السابقة، وهم أصحاب المكانة الدينية بين العرب عامّة، وفي المدينة خاصّة، فجاءهم الخطاب داعيًا إلى اتباع النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوبًا عندهم، ومصدّقًا لما معهم ومهيمنًا عليه؛ لينتقل بهم إلى الاصطفاف مع عموم الناس في صفٍّ واحد، وإطار جامع، وليعتبر العالمون بسنن الله تعالى التي مضت في بني إسرائيل، وما وقع منهم ولهم، وليُظهر نعمة الله تعالى على البشريّة عامّة ببيان فضل الرسالة الخاتمة وكمالها وجمالها.

"يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ" هذا هو أول نداء لبني إسرائيل في المصحف، نداء له ما بعده! ينادي ربّ العزة بني إسرائيل؛ ليُتمّ نعمته عليهم باتباع الهدى، و"بَنِي": نكرة مضافة تعمّ جميع أبناء إسرائيل عليه السلام، "اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ": الأمر للوجوب؛ و"نِعْمَتِيَ": نكرة مضافة إلى معرفة

[1] سورة البقرة آية (40-41)

تعمّ كلّ النعم الكونيّة والشرعيّة، الحسية والمعنوية، الظاهرة والباطنة، وقد أمرهم الله تعالى بذكر النعم؛ ليزيل غشاوة الغفلة والنسيان عن أعين بصائرهم، ويسترجعوا ما ذهب من العلم؛ حتى يعلموا أن ما بهم من النعم كلُّه من الله وحده، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[2].

وإذا استغرق العبد في تذكُّر النعم وتعدادها، حمله ذلك على الاعتراف بكمال جميل الله تعالى عليه؛ حتى يفضي به ذلك إلى طيّ حظوظ النفس كلّها، فيستكين لربّه، ويمتلئ قلبه حياء من الله الكريم المنّان، فينبعث لشكر الله تعالى حقّ شكره، ويسارع في طلب مرضاته، والتعاون مع العباد على البرّ والتقوى، وينبذ الاستنكاف، والاستكبار، والكفران، ومن عرف نِعَم التشريف ذاق حلاوة التكليف.

"وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ": ما أعظمه من ترغيب! وما أكرمه من وعد، "وَأَوْفُوا": أمر للوجوب، والوفاء الإتيان بالشيء تامًّا من غير نقص، "بِعَهْدِي": نكرة مضافة تعمّ جميع ما أمرهم الله به، وما أخذه عليهم من المواثيق، ومنها الإيمان بالنبيّ الأميّ عليه الصلاة والسلام، "أُوفِ بِعَهْدِكُمْ": "بِعَهْدِكُمْ": نكرة مضافة تعمّ كلّ ما وعدهم الله تعالى به من الولاية والرعاية والإكرام في الدنيا والآخرة.

"وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ": الرهبة: "انصباب إلى وجهة الهرب، فصاحبها يهرب أبدًا لتوقُّع العقوبة، ومن علاماتها: حركة القلب إلى الانقباض من داخل، وهربه وإزعاجه عن انبساطه"[3]. وتقديم "إياي" على الفعل للحصر والقصر، والأمر بالرهبة للوجوب، فأوجب الله تعالى رهبته على المخاطبين لمقصدين عظيمين:

الأولّ: الحجز عمّا يغضب الله تعظيمًا له، وحفظًا للنّعم، واتقاء لعقابه؛ فإنه عزيز ذو انتقام، فبطشه وأخذه أليم شديد.

الثاني: الوقاية من فتنة الإرهاب التي يسلكها شياطين الإنس والجنّ؛ ليصرفوا الناس عن دين الله، فإذا تحرّر القلب من رهبة غير الله، سهُل عليه اتباع الهدى والاستقامة كما أمر الله تعالى. ومفهوم المخالفة: لا ترهبوا غيري؛ لأن النّعم كلّها من الله وحده، وهو وحده القادر على إبقاء النعم وتكثيرها لمن شكر وأطاع، وانتزاعها وإنزال العقوبة بمن أبى واستكبر.

فالآية تؤسس منهج الخطاب الدعويّ لأهل الكتاب على ثلاثة أصول:

الأول: التذكير بنعم الله تعالى التي لا تحصى فإنه من أيسر وألطف السبل إلى القلوب.

---

[2] سورة النحل آية (53)

[3] العسكري، الحسن بن عبد الله، معجم الفروق اللغوية، مؤسسة النشر الإسلامي، قم،1412هـ، ص262 بتصرُّف

الثـاني: الترغيـب والتبشـير: بالأمـر بالوفـاء بعهـد الله مقـرونًا بسـنن الله تعـالى في المجـازاة والإكـرام على فعل الحسنات وترك السيئات، لتحصيل ما وعد الله تعالى به من خيري الدنيا والآخرة.

الثالث: الترهيب من غضب الله وسخطه وأخذه.

قال الله تعالى: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾[4].

من رحمة الله تعالى ولطفه بالعباد أن ييسّر لهم سبل الهدى والرشاد، وأن يقربهم من الحقّ بما تألفُه قلوبهم وتأنس به، فإن بني إسرائيل لما كانوا أهل كتاب، فقد هيأ الله تعالى لهم أحسن الأسباب، وخاطبهم بأحسن خطاب؛ لكي يستألفهم، ويذهب عنهم وحشة الانتقال ممّا كانوا عليه؛ ليتلقّوا الرسالة الخاتمة بما هي أهله من التسليم والتعظيم، فقال الله تعالى: "وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ"، وقد تضمّنت هذه الجملة الموجزة: الحُكْمَ، والعلة، والبرهان:

الحكم: في قوله تعالى: "وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ"، فقد ورد الأمر بالإيمان بأصرح صيّغ الأمر، فلم يترك فسحة للتأويل، فالأمر للوجوب، و"ما" اسم موصول يعمّ كلّ ما أنزل الله تعالى.

العلة: في قوله تعالى: "بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ"، صلة الاسم الموصول "ما" هي (أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ) تومئ إلى العلة، وأسند الفعل: "أنزلت" إلى ضمير المتكلّم المفرد؛ فجاء الكلام عظيمًا مهيبًا، تخضع له القلوب ،وتخشع، ثمّ تلين إلى ذكر الله تعالى، فتخبت وتسرع.

وأما البرهان: ففي ورود الأمر مقرونًا بحجة بالغة لا يزيغ عنها إلا جاحد، في قوله تعالى: "مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ"، فلفظ: "مُصَدِّقًا" قيدٌ للفعل ووصف للهدى المنزّل، فقد وُضِعتْ كالجسر؛ لتعبر عليه قلوب بني إسرائيل من عهد الاختصاص القوميّ إلى عهد الانفتاح على العالمين، فقد أصبح الناس أجمعون في ظلّ الرسالة الخاتمة أمة واحدة.

و"لِمَا مَعَكُمْ" "لِمَا": ما موصول يعمّ كلّ ما معهم من بقايا علم الكتاب الذي لم يبدّل، وفي جعْل الكتاب المنزّل مصدّقًا لما معهم مقاصدُ:

الأول: تيسير الوصول إلى العلم بصدق الكتاب المنزّل من غير لَبْس ولا حرج؛ فقد أحالهم على ما يعلمونه.

الثاني: إقامة الحجة البالغة على بني إسرائيل.

الثالث: إرشاد أهل الذِّكْر من المسلمين إلى دراسة كتب بني إسرائيل ومقارنتها بما جاء في القرآن الكريم؛ لمعرفة مواطن التصديق؛ لدعوة بني إسرائيل وإقامة الحجة عليهم، ولتثبيت المؤمنين وبيان إعجاز القرآن وفضله.

الرابع: الإشارة إلى حجة جليلة هي "التصديق"؛ لتعميمها على العلوم التي تناولها القرآن

[4] سورة البقرة آية (41-42)

الكريم، فكتاب الله تعالى مصدّق لكثير من العلوم الإنسانيّة والكونية، وهذا التصديق حجةٌ على أهل تلك العلوم، وهذا ما يقوم به دعاة الإعجاز العلميّ في القرآن والسنة بارك الله تعالى في جهودهم.

"وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ": النهي للتحريم، وهذا النهي كالمؤكّد للأمر بالإيمان، قال ابن جزيّ: "هذا نهيٌ عن المسابقة إلى الكفر به، ولا يقتضي إباحة الكفر في ثاني حال؛ لأن هذا مفهوم معطَّل؛ بل يقتضي الأمر بمبادرتهم إلى الإيمان به؛ لما يجدون من ذكره، ولما يعرفون من علامته"[5]، وفي النهي عن الأوليّة في الكفر تحذير لبني إسرائيل من تزعُّم الناس في الكفر؛ فإن كفرهم فتنة لغيرهم.

"وَلَا تَشْتَرُوا": النهي للتحريم، والاشتراء: الاستبدال، وهذه صفة راسخة في أحبارهم، وهي أشدّ الموانع التي تحول دون إيمان بني إسرائيل، و"بِآيَاتِي": نكرة مضافة تعمّ كلّ آية، "ثَمَنًا": نكرة في سياق النهي تعمّ، "قَلِيلًا": صفة كاشفة لا مفهوم لها، قال محمد رشيد رضا: "وإنما سمي هذا الجزاء قليلًا؛ لأن كل ما عدا الحق قليل وحقير بالنسبة إليه، وكيف لا يكون قليلًا وصاحبه يخسر عقله وروحه قبل كل شيء؛ لإعراضه عن الآيات البينات، والبراهين الواضحات؟ ثم إنه يخسر عِزّ الحق وما يكون له من الشأن العظيم وحسن العاقبة، ثم إنه يخسر مرضاة الله – تعالى – وتحلّ به نقمه في الدنيا وعقوبته في الآخرة"[6].

"وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ": أمرٌ للوجوب، وتقديم المعمول للحصر، ومفهوم المخالفة: لا تتقوا غيري. وكما ختم الله تعالى الآية السابقة بالأمر برّهبته أمرهم هنا باتقائه، والفرق أن الرهبة عبارة عن الخوف، وأما الاتقاء فإنما يحتاج إليه عند الجزم بحصول ما يتقى منه، فكأنه تعالى أمرهم بالرهبة؛ لأجل أن جواز العقاب قائم، ثم أمرهم بالتقوى لأن تعيُّن العقاب قائم[7] كما نقله أبو حيان.

فما أحوج المسلمين اليوم إلى مراجعة دينهم والاعتبار بما حاق ببني إسرائيل.

---

[5] ابن جزي، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، الكلبي الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل، المحقق: الدكتور عبد الله الخالد، دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت الطبعة: الأولى - 1416 هـ ج80/1

[6] رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم، تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة طبعة 1990 م، ج242/1

[7] أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة: 1420 هـ ج/1 289

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[8].

هذه الآية وأمثالها تأخذ بحُجَز الناس؛ لتمنعهم من سلوك مسالك المبطلين وتقيهم مصارع المضلّين الذين مَرَدَوا على لَبْس الحقّ بالباطل وكتمان الحقّ؛ ليشتروا بآيات الله تعالى ثمنًا قليلًا.

يقول الله تعالى: "وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ": "وَلَا تَلْبِسُوا" النهي للتحريم، والفعل في سياق النهي يعمّ، فيحرم لَبْسُ الحقّ بالباطل بكلّ صوره وأنواعه، وما أكثرها! ويدخل في هذا العمومِ لَبْسُ المبطلين من غير المسلمين، ولَبْسُ المضلّين من المسلمين من علماء السوء، والمفكّرين، والباحثين، والإعلاميين، والرؤوس الجاهلة، وهذا اللَبْس أنواع، منها: اللبس بالزيادة، واللَبْس بالنقص، واللَبْس بالزيادة والنقص معًا، واللَبْس بالتغيير بتقديم ما حقّه التأخير أو العكس.

وتتنوّع الذرائع المتوسّل بها إلى اللبس، فمن ذلك: التحديث والتجديد، والمعاصرة، والتيسير، والتخفيف، والوسطية، والتسامح، والتعايش، والانفتاح، وفقه الأولويات، والموازنات، ونبذ التخلّف والتعصّب، ورعاية حقوق الإنسان، ومحاربة التطرّف، ونبذ التقليد، وزيادة القُرَب، وتكثير الطاعات؛ لتزكية الأنفس بما لم يأذن به الله تعالى من المحْدَثات، وغيرها. و"الْحَقَّ": "أل" لاستغراق الهدى المنزّل، "بِالْبَاطِلِ": عامّ يدخل فيه كلّ أجناس الباطل المضادّة للحقّ.

وقوله تعالى: "وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ": "وَتَكْتُمُوا": معطوف على "تلبسوا"، والنهي للتحريم، والفعل في سياق النهي للعموم، أي: يحرم كلّ كتمان للحقّ، وهو أنواع كثيرة، منها:

الأول: كتمان الحقّ بحجبه وإخفائه عن الناس.

الثاني: الكتمان بشغل حملة الحقّ بما يصرفهم عن بيان الحقّ.

الثالث: الكتمان بصدّ حملة الحقّ وتغييبهم: كعزل العلماء الناصحين عن المنابر ووسائل البلاغ، وتغييب الدعاة ومنعهم من الصدع بالحقّ.

والنهي عن لبس الحقّ بالباطل وكتمان الحقّ يفضي إلى أمرين:

[8] سورة البقرة آية (42)

الأول: صيانة الوحي وعلوم الشريعة الخاتمة من اللبس والتغيير.

الثاني: عزل الباطل ونبذه. ويترتّب على هذين الأمرين حفظ مقاصد الشريعة كلّها: الضرورية والحاجية والتحسينية.

"وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ": الواو حالية، وهذه الحال لا مفهوم لها، فليست بمخصّصة لعموم النهي، بل هي للمبالغة في ذمّ الواقعين في لَبْس الحقّ بالباطل وكتمان الحقّ مع علمهم بضرر هاتين الموبقتين وسوء عاقبتهما في الدنيا والآخرة. وها هم بنو إسرائيل اليوم يتقدّمون أفواج المبطلين، تَنْسِلُ فتنهم من كلّ حَدَب؛ لحجْب الهدى بظلمات الباطل، وقد أطّت منهم أسواقُ التحريف والتبديل في مشارق الأرض ومغاربها. وهذه الآية وإن كانت تنهى بني إسرائيل عن لَبْس الحقّ بالباطل، وكتمان الحق، فإنها تحذّر المسلمين وغيرهم من اتباع سَنَن المغضوب عليهم صيانة للحقّ المبين ونصحًا للعالمين.

وهذه الآية وإن كانت تنهى بني إسرائيل من المضي في سبل الأئمة المضلّين الذين يلبسون الحقّ بالباطل، ويكتمون الحق وهم يعلمون، قال العلامة الرازي: "وهذا الخطاب وإن ورد فيهم، فهو تنبيهٌ لسائر الخلق وتحذير من مثله، فصار الخطاب وإن كان خاصاً في الصورة لكنه عام في المعنى"[9]. فإنها تنذر المسلمين وغيرهم من اتباع سَنَن المغضوب عليهم والضالّين، وما نشاهده في بلاد المسلمين من لَبْس الحقّ بالباطل، وكتمان الحقّ يشيب لهوله الولدان! اللهم أعنّا على اتباع الحقّ وبيانه للخلق.

[9] الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج485/3

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[10].

تَسُوق الآياتُ بني إسرائيل برفق وتدرّج محكّم إلى ما فيه الصلاح والفلاح في الدارين، فبعد أن أمرهم الله تعالى بالإيمان والتقوى في الآية السابقة، ها هو يأمرهم بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والركوع مع الراكعين؛ ليستوفوا شروط الانتساب إلى خير أمة أخرجت للناس، وليستأنفوا مسيرة الاصطفاء والولاية الرفيعة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[11]، ويا له من تشريف وتكريم أن يكونوا أصحابًا لمحمّد عليه الصلاة والسلام، وإخوة لأتباعه الغرّ المحجلين!

قال الله تعالى: "وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ": الأمر بإقامة الصلاة للوجوب، وإقامتها أداؤها على الوجه الأتمّ، و"الصَّلَاةَ" "أل" للعموم، والصلاة هي الحقيقة الشرعيّة التي بيّنتها السّنة أكمل بيان، وهي عمود الدين، ولا قيام لفُسطاط الإسلام إلا بالصلاة، ومن ثمارها:

-العون على جلب المصالح ودرء المفاسد، قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[12].

-النهي عن الفحشاء والمنكر، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[13].

وقال الله تعالى: "وَآتُوا الزَّكَاةَ" الأمر يوجب أداء الزكاة المعهودة شرعًا، وقد ثنّى بالزكاة؛ لأنها تزكّي نفوس الباذلين، قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[14]، وتسدّ حاجات المحتاجين، وتقوّي رابطة الولاء في الأمة، وتدفع عجلة التنمية في مسار متوازن مستدام، فهي محرّك التنمية الاقتصادية في الأمة الإسلامية.

وقال الله تعالى: "ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ": الأمر بالركوع ظاهره الوجوب، و"أل" في "الرَّاكِعِينَ" للعموم، فيعمّ كلّ راكع من غير تمييزٍ بينهم، ولا تفاضلَ بين الشعوب ولا القبائل

---

[10] سورة البقرة آية (43)

[11] سورة المائدة آية (55)

[12] سورة البقرة آية (153)

[13] سورة العنكبوت آية (45)

[14] سورة التوبة آية (103)

ولا الأقوام إلا بالتقوى. والركوع لغة: الخضوع كما نقله ابن سيده عن ثعلب[15]، وعليه اقتصر الإمام الطبريّ في تفسير الآية، فقال: "وأما تأويل الرُّكوع، فهو الخضوع لله بالطاعة"[16]، وقال: "وهذا أمرٌ من الله جل ثناؤه بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والدخولِ مع المسلمين في الإسلام، والخضوع له بالطاعة"[17].

وذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بالركوع هو الركوع في الصلاة، وفي هذا الحملِ توكيدٌ وتكرار؛ لأن الأمر بالركوع داخل في الأمر بإقامة الصلاة، واختلفوا في التعليل، قال العلامة الرازي: "أما قوله تعالى "ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ"، ففيه وجوه أحدها: أن اليهود لا ركوع في صلاتهم، فخصّ الله الركوع بالذكر تحريضًا لهم على الإتيان بصلاة المسلمين، وثانيها: أن المراد صلّوا مع المصلين، وعلى هذا يزول التَّكرار؛ لأن في الأول أمر تعالى بإقامتها، وأمر في الثاني بفعلها في الجماعة"، ثمّ قال الرازيّ رحمه الله: "وثالثها: أن يكون المراد من الأمر بالرّكوع هو الأمر بالخضوع؛ لأن الركوع والخضوع في اللغة سواء. فيكون نهيًا عن الاستكبار المذموم، وأمرًا بالتذلل، فكأنّه تعالى لما أمرهم بالصلاة والزكاة أمرهم بعد ذلك بالانقياد والخضوع وترك التمرّد"[18].

أقول: القول الثالث هو الأرجح؛ لأن الصفة الصريحة "الرَّاكِعِينَ" فيها إيماء وتنبيه على العلّة، والتعليل بالخضوع العامّ لأحكام الإسلام هو الأوفق للسياق، والأحسن تأسيسًا؛ لأنه جامع لما ذكروه من المعاني: الصلاة جماعة، والتعريض باليهود الذين لا يركعون في الصلاة، ولما لم يذكروه من المعاني كالدخول في جماعة المؤمنين، والسير على منهاجهم، ومفارقة القوم الظالمين، ودينهم المبدّل.

ومع هذا التلطّف في الإرشاد لما فيه خير الدنيا والآخرة فقد أبى الذين مَرَدَوا على الباطل، وتمرَّدوا على الحقّ، وأعمى الحسد بصائرهم أن يستقبلوا هذه الهِبَة اللدنيّة، والنفحة العُلويّة، واستحبوا العمى على الهدى، وآثروا سبيل الغيّ على سبيل الرُّشْد!

---

[15] ابن سيده، علي بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة 2000م، ج275/1

[16] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق،ج487/3

[17] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق،ج488/3 بتصرف

[18] الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج291/2 بتصرف

قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[19].

ودّدت وأنا بين يدي هذه الآية أن أخاطب وجهاء الأمة ودعاتها قائلًا:

أتأمرون النّاس بالبرّ وتنسون أنفسكم، وأنتم تتلون الكتاب الذي فيه ذكركم؟ أفلا تعقلون؟

أفلا تعقلون ما تتلون؟

أفلا تعقلون ما تأتون وما تذرون؟

لقد أوهنتنا القسوة والغفلة التي أصابت بني إسرائيل، فنحن نأمر الناس بالتعاون على البرّ والتقوى، ولا نتعاون إلا قليلًا! ونرفع شعار العدل، والإحسان، وندعو إلى الشورى، وحفظ حقوق الإنسان، ونخالف ما نأمر به كثيرًا، فما أشدّ الجفوة بين القول والعمل، وما أعظم الفجوة بين ما نحن عليه وما كان عليه سلف الأمة. أو تطمعون أن تتقدّموا وتسبقوا الأمم بغير عقلِ معاني الكتاب ولا عملٍ بالأسباب؟ أليس في بني إسرائيل عبرة لأولي الألباب؟ فما أبلغ العبرة في عموم هذه الآية وخصوصها!

إن هذه الآية تصوّر أزمة القول بلا فعل، والتلاوة بلا عقل! وهي ظاهرة من أحطّ الظواهر التي تمرّ بها الأمم المفرّطة في عقل كتابها والاهتداء به؛ إذ يصبح دعاتها آمرين للناس بالبرّ، تاركين أنفسهم تعمَهُ في سكرتها.

فما أبأسَ مَن سَفِهَ نفسَه، فأمر غيره بالبرّ، ونسي نفسه! إلى هؤلاء وأمثالهم وُجّه الخطابُ في هذه الآية؛ لعلّهم يتوبون، ويثوبون إلى ما فيه مصلحتهم العاجلة والآجلة.

قال الله تعالى: "أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ" "أَتَأْمُرُونَ": الاستفهام للتوبيخ والاستنكار، والفعل مشتقّ من الأمر، وهو يدلّ بصيغته (المضارعة) ومادّته على دأبهم في مطالبة النّاس

[19] سورة البقرة آية (44)

بفعل البرّ، و"النَّاسَ": "أل" للعموم، وهو عامّ مراد به الخصوص، و"بِالْبِرِّ": "أل" للعموم، وهو يعمّ كلّ طاعة لله تعالى[20].

وقال الله تعالى: "وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ"، والنسيان الترك[21]. و"أَنْفُسَكُمْ": نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ كلّ نفس من هذه الطائفة التي عرفت البرّ، وأمرت النّاس به، وتركت نفسها سادرة في غيّها وبغيها.

"وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ" الفعل المضارع يدلّ على تجدّد التلاوة، واستمرارها، فالحجة عليهم قائمة، ولا عذر، و"الْكِتَابَ" "أل" للعهد أي: الكتاب المعهود الذي يأمرهم بالبرّ.

قال الله تعالى: "أَفَلَا تَعْقِلُونَ"، الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والفعل في سياق النفي يدلّ على العموم، وهذه العبارة تنادي عليهم بالسَّفَه، أفلا تعقلون ما تتلونه من الكتاب، وما تأتونه من الفساد.

ولهذا الخطاب مقاصد:

الأول: حفظ الدين علمًا بالجمع بين تلاوة الكتاب وعقل معانيه، وعملًا بالجمع بين إصلاح النفس وهداية الناس، وفي هذا صيانة لشعيرة الدعوة، ومقام الأسوة على وجه الخصوص.

الثاني: تنفير المخاطبين من سوء عاقبة أمر الناس بالبرّ، ونسيان النفس.

الثالث: تحذير المسلمين من الوقوع فيما وقع فيه هؤلاء القوم.

إننا بحاجة –معاشر الدعاة– إلى أن نراجع أنفسنا ونصلحها وفق منهاج النبوّة، فأسوتنا محمّد عليه الصلاة والسلام كان أوَّلَ هذه الأمة إسلامًا، وأكملَهم إيمانًا، وأحسنهم إحسانًا، وأصدقهم حديثًا، وأوفاهم عهدًا، أمر الناس بالبرّ، وكان أبرّهم، وأمرهم بحسن الخلق، وهو أحسن النّاس خُلُقًا، وأمرهم بالرّحمة، وكان أرحمهم بالعالمين، وأمرهم بالخشية والتقوى،

[20] انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق،ج2/7-10

[21] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق،ج2/9

وكـان أخشـاهم وأتقـاهم، وأمـرهم بالعـدل والشـورى، وكـان أعـدلهم وأكثـرهم شـورى، وأمـرهم بالنصحّ، وكان أنصحهم، وأمر بالمسارعة في الخيرات، فكان أسبقهم.

وكـان أبـو بكـر رضـي الله تعـالى عنـه الرجـلَ الثـاني في عهـد النبـوّة، فكـان سـابقًا صِـدّيقًا، ولمـا مـات رسـول الله عليـه الصـلاة والسـلام، أَصـبح خليفـة رسـول الله عليـه الصـلاة والسـلام، فكـان أحسـن الأمـة اسـتقامة وإمامـة، وكـان عمـر رضـي الله تعـالى مسـاعدَه ووزيـره، فكـان ثاني اثنين رتبة ومنزلة في إقامة الدين.

ولمـا تُـوفي أبـو بكـر، صـار عمـرُ إمـامَ الأمـة وأكثرَهـا إحسـانًا إلى الرّعيـة، فكـان الأول بالإجمـاع، والسـابق بـلا نـزاع. فكـانوا أحسـن النـاس أسـوةً في تـلاوة الكتـاب مـع عقـل المعـاني بمراتبها وعواقبها، وأقومَ الناس وسيلة إلى الترقّي والتزكية ومنع التردّي والتَّدْسِيَة.

قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[22].

ختم اللهُ تعالى دعوته بني إسرائيل إلى الإسلام بالأمر بالاستعانة بما يثبّت أقدامهم على الصراط المستقيم؛ لأن الاستجابة للدعوة الجديدة وما يترتّب عليها من المعارف والوظائف والمواقف ثقيلة شاقّة، فأرشدهم الله تعالى إلى خير ما يستعان به. وما أشدَّ حاجة من اتبع الحقّ إلى العون للمضيّ قُدُمًا على الصراط المستقيم، ودفع الباطل وأخطاره، وقد دلّهم الله تعالى على الزاد والعتاد.

قال الله تعالى: "وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ"، وفيه أمور:

الأول: الآمر بالاستعانة: هو الله اللطيف الخبير العليم بوسع الناس وطاقتهم وافتقارهم وحاجاتهم إلى ما دلّهم عليه.

الثاني: صيغة الأمر "افعل" للوجوب، فالاستعانة فريضة من فرائض الله تعالى، والتفريط فيها معصية يؤاخذ عليها العبد.

الثالث: المأمور به: الاستعانة: وهي طلب العون، والعون إمدادٌ بالقوة والقدرة الحِسّيّة والمعنويّة؛ لجلب نفع ودفع ضرّ. والاستعانة بالله تعالى عبادة؛ لأن المستعين مقبل على الله تعالى ممتثلٌ ما أمره الله به.

الرابع: المأمورون بالاستعانة: هم المخاطبون أصالة (بنو إسرائيل)، وتبعًا (جميع المكلّفين). وكلّهم محتاجون ومفتقرون إلى العون؛ لأنهم ذوو حاجة وافتقار، ونقص وعجز، والناس جميعًا فقراءُ إلى الله تعالى، ولا قيام لحياتهم إلا بعون الله تعالى.

[22] سورة البقرة آية (45-46)

الخامس: المستعان به:

– "الصَّبْرِ": "أل" للعموم، يعمّ كلّ أنواع الصبر، والصبر المشروع هو ركون القلب إلى العليّ العظيم، وتثبيت القَدَم على الصراط المستقيم. وأنواع الصبر ثلاثة، أعلاها رتبة الصبر على الطاعات؛ لأنه صبر على فعل ما يحبّه الله ويرضاه، وأوسطها الصبر عن المعاصي، وهو صبرٌ على ترك ما يبغضه الله تعالى وما يغضبه، وأدناها الصبر على الأقدار الكونيّة، وهو صبر على ما نزل بالعبد من الأقدار، فمن رضي بالقدر فله الرضا، ومن سخط فعليه السخط.

– "الصَّلَاةِ" "أل" للعموم، و"الصَّلَاةِ": حقيقة شرعية، وهي فرائض ونوافل، وهي من أعظم ما يُتقرّب به إلى الله تعالى، ونفعها في جلب المصالح ودرء المفاسد عظيم، وقد جعل الله تعالى أسبابًا يُتوسّل بها إليه؛ لتحصيل عونه، فمن استعان بما يحبّه الله تعالى ويرضاه، هُدِيَ وكُفِيَ وأفلح، ومن توسّل بما يُسخط الله تعالى أثِمَ وغرِمَ وخسر.

السادس: المستعان عليه: أمور الدين والدنيا (جلب النفع والخير ودفع الضرّ والشرّ). فلا يُجْلَب نفعٌ ولا يُدفع ضرٌّ إلا بعون من الله تعالى!

وقال الله تعالى: "وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ"، الضميرُ في "وَإِنَّهَا" قال الزمخشريّ: إن "الضمير للصلاة أو للاستعانة. ويجوز أن يكون لجميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل ونهوا عنها من قوله: (اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ) إلى (وَاسْتَعِينُوا)"[23]، واختار ابن عاشور عود الضمير إلى جميع ما أُمر به بنو إسرائيل، وقال: هو أوضح الأقوال وأجمعها، وَالْمَحَامِلُ مُرَادَّةٌ[24]، والأخذ بالأعمّ أرجح؛ لزيادة المعنى من غير إخلال، فتكون كلّها كبيرة، وفي المعنى الأعمّ فائدة أخرى وهي الحفاظُ على نظم المعاني في سلك خطاب بني إسرائيل، والمنعُ من صرف بعض ما ورد في الآيات إلى غير بني إسرائيل بلا دليل.

و"لكبيرة": لثقيلة، والاستعانة بما سمّى الله تعالى وَفق ما شرع ثقيلة شاقّة على

[23] الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، مرجع سابق،ج134/1

[24] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج479/1

النفوس، ولذا نجد كثيرًا من الناس يُهرَعون إلى ما يُسخط الله تعالى، ويستنكفون ممن يدعوهم إلى اتباع الحقّ، وها هم اليهود والنصارى والكفار ينْأون عن الإسلام وينهون عنه! وليس في الإسلام إلا ما يصلح دنياهم وأخراهم، ويضع عنهم الإصر والأغلال، ويحلّ لهم الطيبات، ويقيهم شرّ الخبائث!

وقد سرى إلى طوائف من أبناء الإسلام بعض ما أصاب بني إسرائيل؛ حتى هجروا كثيرًا ممّا أمروا باتباعه! واستحسنوا ما خالفها من سنن المغضوب عليهم والضالّين، وزادوا في دين الله ما لم يأذن به الله تعالى، فحرّفوا الكلم عن مواضعه، واشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا. ولما مَاثَلَ الداءُ الداءَ (شابَهَ داؤنا داءَهم) كان العلاج هو العلاج: "وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ".

و"الْخَاشِعِينَ": صفة صريحة و"أل" للعموم، تعمّ كلّ خاشع، وفيها إيماء وتنبيه على العلّة وهي الخشوع. قال الإمام الطبريّ: "وأصل "الخشوع": التواضع والتذلّل والاستكانة"[25].

وقال الله تعالى: "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ".

"الَّذِينَ": صفة مدح للخاشعين لا مفهوم لها، و" يَظُنُّونَ" الظنّ: مشترك بين اليقين وبين الشكّ كما اختاره الطبريّ[26]، والسياق يرجّح كونه هنا للجزم؛ لأن ملاقاة الله تعالى والرجوع إليه أمر مقطوع به، فلا يجوز فيه الشكّ، ومن شكّ فليس بمؤمنٍ. فاليقين بلقاء الله والرجوع إليه خير معين على الاستجابة لأمر الله تعالى.

ولما كانت هذه الصفات الجليلة ظاهرة في جماعة المسلمين محمّدٍ -عليه الصلاة والسلام- وصحبه الكرام دون غيرهم، دلّ هذا الثناء الكريم من الربّ الرحيم بدلالة الإشارة على استحثاث بني إسرائيل على متابعة الرسول -عليه الصلاة والسلام- وصحبه الكرام، والتأسّي بهم، وفيه تعريض بخصومهم من أهل الكتاب والمشركين!

[25] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق،ج17/2

[26] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق،ج17/2

قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾[27].

خطاب كريم عامر بتوحيد الله تعالى وتعظيمه، يأمر بني إسرائيل بذكر نعم الله تعالى وفضله عليهم، خطاب يبث في قلوبهم الرجاء الجميل، ويصل ماضي صالحيهم أرباب المكارم والفضائل بالحاضر المتوّج بسيّد المرسلين المبعوث بأكرم رسالة، وأطيب منحة، وإنها لفرصة لبني إسرائيل وأيّ فرصة للالتحاق بركب الأسلاف الكرام، ثمّ ينتقل الخطاب؛ ليفتح باب التحذير والتخويف، ويَصِلَ الحاضر باليوم الآخر... بالمستقبل البعيد بأهواله وشدائده.

ولما كان الخطاب في الآية للامتنان أُسنِد الفعل إلى الله تعالى جدُّه، وأما الآية الثانية فللتخويف والتهويل، وقد بُنيت الأفعال فيها لما لم يسمَّ فاعله؛ ليجمع في قلوبهم الرجاء والخوف؛ ليستقيموا في مقام الاختصاص على صراط الخلاص؛ فيُسبغ الله تعالى عليهم نعمه ظاهرة وباطنة -إن استجابوا- كما أتمّها على أسلافهم الكرام.

-"يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ" تَكرار النداء بهذا النسب الكريم إلى إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، فيه جمعٌ بين التعريف والتشريف، "بَنِي": نكرة مضافة تعمّهم جميعًا.

-"اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ": الأمر للوجوب، والذكر نوعان: ذكرٌ بالجَنَان: وهو رفعُ الغشاوة عن بصر القلب؛ ليشاهد ما استتر خلف حجب النسيان، وذكرٌ باللسان وهو اللهج بالنّعم والتحديث بها اعترافًا وشكرًا.

[27] سورة البقرة آية (47-48)

-"نِعْمَتِيَ": نكرة مضافة إلى "ياء" المتكلّم ذي الجلال والإكرام تعمّ كلّ نِعَم الله تعالى على بني إسرائيل وغيرهم، وقد خُصّصت بالصفة: "الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ": وقد أسند الفعل إلى "تاء" المتكلّم للتوحيد والتعظيم والامتنان، ومفهوم شبه الجملة "عليكم": لا على غيركم.

-"وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ" المصدر المؤوّل بمعنى: "تفضيلي لكم" يعمّ كلّ تفضيل، والتفضيل بعض نعمة الله تعالى عليهم، فهو من باب عطف الخاصّ "التفضيل" على العامّ "نعمتي"؛ لبيان عظمة نعمة التفضيل. و"الْعَالَمِينَ": عامّ مراد به الخصوص أي: أهل زمانهم، فلم يبعث الله نبيًّا من بعد يعقوب (إسرائيل) حتى بعثةِ محمّد عليه الصلاة والسلام إلا من بني إسرائيل، ومحمّد من ذريّة أبيهم إبراهيم عليهم الصلاة السلام جميعًا، وإنه لشرف لهم لو كانوا يعقلون! وقد أمرهم الله تعالى بذكر النعم السالفة؛ لمقاصد، منها:

-التلطّف، والتودّد، وإظهار الكرامة التي اختصّهم الله بها دون العالمين؛ لإزالة النفرة والوحشة التي في قلوبهم.

- توسيع باب الرجاء والطمع في جريان النعم عليهم إن استقاموا على الطريقة كما جرت على سلفهم الصالح.

- حملهم على الإقرار بأن تلك النّعم محض تفضّل من الله وحده، واختصاصُهم بها مما يوجب شكر الله تعالى، والتواضع له، والحياء منه، والخضوع لأمره. والله تعالى يؤتي فضله من يشاء، فالذي فضّل أسلافهم بالرسالة على العالمين، هو الذي اختصّ ابن عمّهم محمّدًا عليه الصلاة والسلام بالكتاب؛ ليكون للعالمين بشيرًا ونذيرًا.

"وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا": وهذا انتقال حكيم من مقام الرجاء إلى مقام التخويف والتحذير.

"وَاتَّقُوا يَوْمًا": الأمر للوجوب، فهو تكليف بفعلٍ ما يقي من أهوال ذلك اليوم، وفيه تخويف من تقطّع الأسباب يوم الحساب، و"يومًا": مفعول به نكرة موصوفة بأوصاف:

الأول: "لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا": الفعل: تجزي والنكرات الثلاث: "نفس، عن نفس، شيئا" كلّها في سياق النفي فهي عامّة، والمعنى "لا تقضي نفس عن نفس حقًّا لزمها لله جلّ

ثناؤه ولا لغيره"[28]، ولا أحد يحمل من وزر غيره شيئًا.

الثاني: "وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ" الفعل: "يُقْبَلُ" والنكرة: "شَفَاعَةٌ" كلّاهما في سياق النفي فهما عامّان، والشفاعة المنفية هي الشفاعة للكافرين، وفي هذا أبلغ التهديد والوعيد، فلا شافع يشفع لهم؛ ليُسقِط بوجاهته عنهم ما عليهم.

الثالث: "وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ" الفعل: "يُؤْخَذُ" في سياق النفي يعمّ، والنكرة: "عَدْلٌ" في سياق النفي للعموم، والعَدْل بفتح العين الفدية[29]، فلا يقبل منهم فدية! وأنى لهم الفدية؟

الرابع: "وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ": الفعل في سياق النفي يعمّ. فلا ناصر لهم يدفع عنهم ما عليهم بالمغالبة.

ويمضي الخطاب في كشف أحوال بني إسرائيل وتقلّباتهم؛ حتى يظنّ الظانّ أن لا مكان للتلطّف بهم، فإذا نداء الغفور الودود يوقفك بعد بضع وسبعين آية بين يدي آيتين باسطتين جناحي الدعوة بألين قول وأحسن موعظة: ﴿يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾[30]، فما أشبه الاستهلال بالخاتِمة! وما أجمل العَرْض! وما أقبح الإعراض عن الرسالة الخاتَمة!

قال العلّامة الرازي: "وذلك لأن العرب إذا دُفع أحدهم إلى كريهة، وحاولت أعوانُه دفاع ذلك عنه، بذلت ما في نفوسها الأبية من مقتضى الحمية، فذبَّت عنه كما يذبّ الوالد عن ولده بغاية قوته، فإن رأى من لا طاقة له بمناعته، عاد بوجوه الضراعة وصنوف الشفاعة، فحاول بالملاينة ما قصر عنه بالمخاشنة، فإن لم تغن عنه الحالتان من الخشونة والليان، لم يبق

[28] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق،ج32/2

[29] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق،ج34/2

[30] سورة البقرة آية (122-123)

بعده إلا فداء الشيء بمثله، إما مال أو غيره، وإن لم تغن عنه هذه الثلاثة، تعلّل بما يرجوه من نصر الأخلاء والإخوان، فأخبر الله سبحانه أنه لا يُغني شيء من هذه الأمور عن المجرمين في الآخرة"[31].

[31] الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج291/2 بتصرف

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾[32].

واقعة من أعظم وقائع الإنقاذ والإنجاء في التاريخ، تمدّ قلوب المستضعفين بحسن الظنّ بالله تعالى، وتبثّ فيها الرجاء الجميل والأمل الطويل، لقد انتزعت القومَ المستضعفين من بين يدي أعتى الطغاة، ونبذته مهانًا في اليمّ هو وجنوده.

واقعة فيها تحذير عظيم من مخالفة شرع الله تعالى، فقد سُلّط على أفضل الأمم أخبث المجرمين، وها نحن نشهد أخبث المجرمين يسومون طائفة من خير البريّة سوء العذاب! فاعتبروا يا أولي الألباب!

إنها سُنة البلاء بالخير والشرّ، سُنة ماضية على العباد جميعًا، قال الله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[33]، سُنةٌ يَمِيز الله تعالى بها الخبيث من الطيب، ويرفع بها درجات المحسنين، ويفتن بها المفسدين؛ ليزدادوا إثمًا، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[34]. وقد ذكّر الله تعالى بني إسرائيل بإنجائهم من آل فرعون، وبما كانوا فيه من العذاب العظيم، وبنعمة مجاوزته لهم البحر وإغراق عدوهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾[35].

قال الله تعالى: "وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ":

-"نَجَّيْنَاكُمْ" قال السمين الحلبيّ: "وأصلُ الإنجاءِ والنجاةِ الإلقاءُ على نَجْوَةٍ من الأرضِ، وهي المرتفعُ منها؛ لِيَسْلَمَ من الآفات، ثم أُطلِقَ الإنجاء على كل فائزٍ وخارجٍ من ضيق إلى سَعَة، وإن لم يُلْقَ على نَجْوة"[36]. فهو تحوّل من دَرْك العذاب المهين الذي لبثوا فيه طويلًا إلى نجوة التمكين التي بلغوها بعد هلاك فرعون.

---

[32] سورة البقرة آية (49-50)

[33] سورة الملك آية (2)

[34] سورة الأنبياء آية (35)

[35] سورة الملك آية (113)

[36] السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج341/1

-"آَلِ فِرْعَـوْنَ": "آَلِ": أهـل، نكـرة مضـافة تعـمّ، مخصوصـة بالحـسّ، فقـد كـان بعـض آل فرعـون مؤمنين، فهو من العامّ المراد به الخاصّ.

-"يَسُـومُونَكُمْ" قـال الطـبري: "يـوردونكم، ويـذيقونكم"[37]، والجملـة في موضـع حـال صـاحبها آل فرعون.

- "سُوءَ الْعَذَابِ": "الْعَذَابِ" "أل" للعموم مخصّص بالحسّ.

- "يُـذَبِّحُونَ أَبْنَـاءَكُمْ وَيَسْـتَحْيُونَ نِسَـاءَكُمْ": "يُـذَبِّحُونَ": في موضـع بـدل مـن "يَسُـومُونَكُمْ"، وصـيغة الفعـل للمبالغـة، و"أَبْنَـاءَكُمْ": "أبنـاء" نكـرة مضـافة تعـمّ الصـغار والكبـار، فـاللفظ عـامّ مـراد بـه خصـوص المواليـد لا الكبـار، و"نِسَـاءَكُمْ": عـامّ مـراد بـه خصـوص المولـودات، واسـتعمل اسم النساء باعتبار المآل؛ لأنهن محلّ الانتفاع والامتهان والإذلال من قِبَل آل فرعون.

- "وَفِي ذَلِكُـمْ بَـلَاءٌ مِـنْ رَبِّكُـمْ عَظِـيمٌ"، "وَفِي ذَلِكُـمْ بَـلَاءٌ" ذهـب الطـبريّ إلى أن اسـم الإشـارة مقصـود بـه الإنجـاء والتنجيـة، ومعـنى "بـلاء": نعمـة، ونقلـه عـن ابـن عبـاس ومجاهـد"[38]، ويقـوّي هـذا المـذهب أن السـياق للتـذكير بالـنّعم، ونقـل القـرطبيّ عـن جمهـور المفسـرين أن "ذلكـم" إشـارة إلى العـذاب، ونقـل عـن بعضـهم أنـه إشـارة إلى التنجيـة والعـذاب معًـا؛ ليمـتحن شـكرهم للنعمـة، وصـبرهم علـى الأذى[39]، واختـاره محمـد رشـيد رضـا، فقـال: "وفي ذلكـم العـذاب وفي التنجيـة منـه -في كـل منهمـا- بـلاء وامتحـان عظـيم لكـم مـن ربكـم"[40]. والحمـل علـى المعـنى الأتمّ أولى؛ لمـا فيـه مـن الجمـع بـين التـذكير بالـنعم، والتحـذير مـن الـنقم والعقـوبات تصـريحًا؛ لأن اسـم الإشـارة إذا أشـرنا بـه إلى العـذاب والتنجيـة يكـون دالًّا علـى كـلّ واحـد منهمـا بالتضـمّن) ولـو اقتصـرنا علـى أحدهما لدلّ على الآخر بالالتزام (بدلالة الإشارة) ودلالة التضمن أقوى.

"مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ": صفتان للبلاء:

---

[37] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق،ج40/2

[38] انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق،ج48/2

[39] القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، ط2، 1384هـ - 1964 م، ج1/ 387

[40] رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، مرجع سابق، ج256/1

الأولى: "مِنْ رَبِّكُمْ"، قال أبو البقاء: "في موضع رفعٍ صفةٌ لبلاء"[41]، والفائدة البلاغية تقديم هذه الصفة المؤوَّلة على الصريحة (عظيم)، هي أن تقديم الاسم العظيم المضاف "ربّكم"؛ يدلّ على عظمة ما جاء من البلاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[42]. قال أبو حيان: "وتقدَّم الوصفُ بالإنزال وكان الوصف بالفعل المسند إلى نون العظمة أولى من الوصف بالاسم؛ لما يدلّ الإسناد إلى الله تعالى من التعظيم والتشريف"[43].
وفي قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾[44]. وتقديم الوصف بشبه الجملة أو الجملة على الوصف بالاسم المفرد أجازه بعض النحاة، وفي التقديم إشارة إلى الاهتمام والعناية، ومن ذلك قوله تعالى: "مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ".

قال أبو حيان: "ولما كان الوصف الذي يتعلق بالمؤمن أوكد لموصوفه، قدم على الوصف المتعلق بالكافر، ولشرف المؤمن أيضًا. ولما كان الوصف الذي بين المؤمن وربه أشرف من الوصف الذي بين المؤمن والمؤمن، قدّم قوله: يحبهم ويحبونه على قوله: أذلة على المؤمنين.
وفي هذه الآية دليل على بطلان قول من ذهب إلى أن الوصف إذا كان بالاسم وبالفعل لا يتقدم الوصف بالفعل على الوصف بالاسم إلا في ضرورة الشعر"[45].
وفي قول الله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ﴾[46]، قال أبو السعود: "أي كائناً من جنسِنا وانتصابُه بفعلٍ يفسِّره ما بعدَهُ "واحدًا" أي: منفردًا لا تبع له أو واحدًا من آحادِهم لا من أشرافِهم وهو صفةٌ أُخرى ل"بشراً" وتأخيرُه عن الصفةِ المؤولةِ للتنبيهِ على أنَّ كلاً من

---

[41] العكبري، عبد الله بن الحسين، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج1/ 61
[42] سورة الأنعام آية (92)
[43] أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة: 1420 هـ ج4/ 695
[44] سورة المائدة آية (54)
[45] أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة: 1420 هـ ج4/ 299
[46] سورة القمر آية (24)

الجنسيةِ والوحدةِ مما يمنعُ الاتباعَ ولو قُدِّمَ عليَها لفاتتِ هذه النكتةُ"[47].

وقال ابن مالك: "وإذا نُعِت بمفرد وجملةٍ وظرفٍ أو شبهه، فالأقيس تقديم المفرد وتوسيط الظرف أو شبهه وتأخير الجملة، كقوله تعالى: (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه) وقد تقدّم الجملة، كقوله تعالى: (فسوف يأتي الله بقوم يُحبُّهم ويُحبُّونه أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين) "[48].

الثانية: "عَظِيمٌ": عظيم في مقداره ونوعه، فالله تعالى يرينا في هذا البلاء مقدار سوء العذاب الذي ابتلى به بني إسرائيل؛ حتى لا يأمن عبدٌ مكر الله تعالى، ومن ذا الذي يستطيع أن يقدّر ما وقع في قلوبهم لذبح الأبناء واستحياء النساء للخدمة والامتهان؟ وفي أيّ دَرْكٍ من العذاب كانوا؟

كما يرينا الله عزّ وجلّ مقدار الخير الذي مَنّ به على بني إسرائيل بتدبيره، وتقديره وحده؛ حتى لا نقنط من رحمة الله تعالى.

وقال الله تعالى: "وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ"

- وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ": "فَرَقْنَا": فَصَلْنا، قال السمين: "والفَرْقُ والفَلْقُ واحدٌ، وهو الفصلُ والتمييز"[49]."الْبَحْرَ"، المعروف المعهود.

-فَأَنْجَيْنَاكُمْ

- "وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ" "آلَ فِرْعَوْنَ"، عامّ مراد به الخصوص، وهم الذين نفروا مع فرعون لقتال بني إسرائيل. "وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ" تنظرون مصير عدوكم، وهو يغرق ذليلًا مهانًا.

وقد أسند الأفعال إلى ضمير المعظِّم نفسَه الكبير المتعال؛ ليذكّرهم بأن ما حصل لهم من النعم إنما كان بفضل الله تعالى وحده، وما حلّ بعدوّهم من الهلاك إنما كان بقوة الله وحده وانتقامه؛ فقد كان بنو إسرائيل أقلّ وأضعف، وكان عدوُّهم في قوة ومَنَعَة، ولم يك ثمّ أمل في الخلاص

---

[47] انظر: أبا السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، مرجع سابق، ج171/8

[48] ابن مالك، محمد بن عبد الله، شرح تسهيل الفوائد، تحقيق: عبد الرحمن السيد، ومحمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر، ط1، 1410ه، ج320/3

[49] السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج350/1

من بطش فرعون وطغيانه بالنظر إلى موازين القوة لدى الفريقين.

وما نشاهده اليوم من بغي اليهود وطغيانهم سيوردهم المهالك. ففي الآيتين بشرى وتسلية للمستضعفين في فلسطين وغيرها، فأحسنوا ظنّكم بالله تعالى، واتبعوا سبيله، واستبشروا معاشر المؤمنين بالنصر المبين، والتمكين، ولترؤنّ نصر الله تعالى قريبًا. فإن الله تعالى لا يخلف الميعاد.

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[50].

[50] سورة الأعراف آية (128-129)

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[51].

ما أوسع رحمة الله تعالى بالعباد، وما أسرع سريان الكفران إلى القلوب! لقد رأوا الآيات التسع، وهلاك فرعون، وكان عهدُ النجاة قريبًا، فكيف أشركوا بالله تعالى؟

لقد ظهرت بوادر الفتنة بعد تجاوزهم البحر بزمنٍ يسير، وقد صرحوا برغبتهم في اتخاذ الأصنام؛ لجهلهم بمقام العليّ العظيم ذي الجلال والإكرام، قال الله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[52].

"وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً"، مطلعٌ عامرٌ بالتكريم، واعَدَ اللهُ تعالى عبدَه موسى عليه السلام؛ ليكرمه بقربه، ومناجاته، وبالألواح الكريمة التي فصّل الله تعالى فيها آياته، فمضى للقاء ربّه عزّ وجلّ، واستخلف على قومه أخاه هارون عليهما السلام.

"ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ" وهذا انحطاط إلى الدرك الأسفل من الجهالة والسَّفَه والعصيان! وقد قاد الفتنة وَقَّادُها السامريُّ، ولكلّ فتنة سامرٌ يهجُر ويُغوي! فصنع لهم العجل، وعكفوا عليه إلا قليلًا منهم. و"الْعِجْل" "أل" للعهد الذهنيّ، صنم أصمّ حقير مصنوع بأيديهم، ومصوّر بآلاتهم، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا! "وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ": فظلموا أنفسهم ظلمًا عظيمًا بشركهم بالله تعالى، ومخالفتهم رسولهم، وتعطيلهم عقولهم!

قال الإمام الطبريّ: "أخبر جل ثناؤه المخالفين نبينا صلى الله عليه وسلم من يهود بني

[51] سورة البقرة آية (51-53)

[52] سورة الأعراف آية (138-140)

إسرائيل، المكذبين به المخاطبين بهذه الآية – عن فعل آبائهم وأسلافهم، وتكذيبهم رسلهم، وخلافهم أنبياءهم، مع تتابع نعمه عليهم، وشيوع آلائه لديهم، مُعَرِّفَهم بذلك أنهم –من خلاف محمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم به، وجحودهم لرسالته، مع علمهم بصدقه – على مثل منهاج آبائهم وأسلافهم، ومحذِّرَهم من نزول سطوته بهم بمقامهم على ذلك من تكذيبهم ما نزل بأوائلهم المكذبين بالرسل: من المسخ واللعن وأنواع النقمات"[53].

"ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"، ثمّ تابوا فتاب الله تعالى عليهم، وعفا عنهم، "لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ": "لعلّ" للتعليل، وفي هذه العبارة تهييج لبني إسرائيل؛ ليبادروا إلى شكر الله تعالى وتلقّي رسالته الخاتمة بالقبول والتسليم.

"وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ"، "الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ": "أل": للعهد، والكتاب المكتوب، والفرقان ما يفرّق بين الحقّ والباطل؛ وقد نزّل تغاير الصفات منزلة تغاير الذوات، وفي هذا الأسلوب تعظيم لهاتين الصفتين الجليلتين لما يترتّب عليهما من اهتداء إلى المصالح العاجلة والآجلة. فالكتابة وسيلة حفظ العلم المنزّل واستدامة نفعه، والفرقان فعل ذلك العلم في قلوب العباد، "لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ": "لعلّ" للتعليل. وفي هذا التعقيب تحضيض وتعريض، تحضيض على الاهتداء والوفاء بالعهد بالاستجابة لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام المذكور في التوراة باسمه وصفاته، وتعريض بالمعرضين.

[53] الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج2/ 63

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْد بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[54].

هذا لون فريد من ألوان التوبة المفتّحة أبوابها للعباد ليل نهار؛ ليتطهّروا من ذنوبهم، وقد جعل الله تعالى أحكامه كلّها جالبة لمصالح العباد، دارئة للفساد والخبَث عنهم في المعاش والمعاد. لقد ظلم بنو إسرائيل أنفسهم بعبادتهم العجل بعد أن مَنّ الله تعالى عليهم بتلك النعم العظام، ورأوا من آيات الله تعالى ما رأوا، فأوجب الله تعالى عليهم تلك العقوبة بين يدي التوبة، فقتلَ بعضُهم بعضًا توبة إلى الله تعالى، فتاب الله تعالى عليهم.

"وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ": "قوم" في الموضعين نكرة مضافة: عامّة مراد بها خصوص الذين أشركوا؛ لأن فريقًا منهم بقي ثابتًا على الحق مع هارون عليه السلام، "أَنْفُسَكُمْ": عامّ مراد به الخصوص، "الْعِجْلَ": المعروف.

"فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْد بَارِئِكُمْ"

-"فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ" "فَتُوبُوا"، الأمر للإلزام والإيجاب، والتوبة إلى البارئ سبحانه وتعالى وليست إلى أحدٍ غيره.

و"البارئ": الخالق، "الباء والراء والهمزة أصلان إليهما ترجع فُروع الباب: أحدهما الخَلْق، يقال: بَرَأَ الله الخلقَ يَبْرَؤُهم بَرْءاً. والبارئ الله جَلَّ ثناؤه. قال الله تعالى: "فَتُوبُوا إلى بَارِئِكُم". والأصل الآخَر: التباعُد مِن الشيء ومُزايَلَتُه"[55].

"فَاقْتُلُوا": الأمر للإلزام والإيجاب، "أَنْفُسَكُمْ": عامّ مراد به الخاصّ، وقد أمروا بأن يقتل بعضهم بعضًا؛ ليطهّرهم من جريمتهم.

"ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْد بَارِئِكُمْ" تصريح بعلّة الأمر بالتوبة بقتل أنفسهم.

وقد تكرّر الاسم العظيم "بارئ" في القرآن الكريم ثلاث مرات، منها وروده مضافًا إلى "كاف" المخاطبين في هذه الآية مرتين، وفي ذلك تذكير بنعمة برئه إياهم، وتأنيب على انصرافهم عن طاعته، وفيه استئناس لهم وترغيب في الاستجابة لأمره بقتل أنفسهم؛ فما قتْلُ أنفسهم طاعةً للبارئ إلا انتقال من بَرء إلى بَرء جديد؛ لأنهم آيبون إلى المبدئ المعيد، وأمرُ البارئ خير لهم.

"فَتَابَ عَلَيْكُمْ" تعجيل بالبشرى بحصول التوبة عليهم جميعًا (مَن قُتل ومن سَلِم)، "إِنَّهُ هُوَ

---

[54] سورة البقرة آية (54)

[55] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج236/1 بتصرف

التَّـوَّابُ الـرَّحِيمُ" تعليـل للإنعـام بالتوبـة العظيمـة بـذكر صـفتين بالغتـين الغايـةَ في كثـرة التوبـة عـن العباد وكمال الرحمة "التَّوَّابُ الرَّحِيمُ".

وقد استنبط العلامة الرازيّ وجوه الإنعام من التذكير بهذه التوبة:

أحدها: التنبيه على عظم الذنب وكيف يتخلصون منه.

وثانيهـا: أن الله تعـالى لمـا أمـرهم بالقتـل رفـع ذلـك الأمـر عـنهم قبـل فنـائهم بالكليـة، فكـان ذلـك نعمـة في حـق أولئـك البـاقين. وفي حـق ذريّـتهم ومـنهم الـذين كـانوا موجـودين في زمـان محمـد عليـه الصلاة والسلام.

وثالثهـا: بيـان التشـديد في تلـك التوبـة فيـه تنبيـه علـى الإنعـام العظـيم بتيسـير التوبـة لهـم علـى يـد محمـد صـلوات الله وسـلامه عليـه، وفيـه ترغيـب شـديد لأمـة محمـد صـلوات الله وسـلامه عليـه في التوبة السهلة اللينة. ومعلوم أن ترغيب الإنسان فيما هو المصلحة المهمة من أعظم النعم[56].

فالحمد لله على نعمة الإسلام، فما أيسر التوبة فيه! قَالَ رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "النَّدَمُ تَوْبَةٌ، وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ"[57].

---

[56] الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج515/3 بتصرف

[57] الألبانيّ، صحيح الجامع الصغير، ح **(6803)**.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[58].

ما أفظع المشاقّة! وما أبأس النفوس العاقّة!

تنطُّع مشوب بالجفاء الشنيع والجهالة المغلّظة.

وزلة أوبقتهم في سخط الله تعالى، فأهلكوا بالصاعقة.

ثمّ أدركتهم رحمة الله تعالى، فأحياهم؛ لعلّهم يشكرون.

"وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً" هذه محادّة ونكران صارخ يقال بعد تلك المنن العظام! "لَنْ نُؤْمِنَ" الفعل في سياق النفي للعموم، ومعناه: لن نقرّ لك، ولن نصدّقك، "حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً": "حتى" حرف غاية، فعموم نفي الإيمان مخصص بالغاية.

"فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ" الفاء للتعقيب والترتيب، فلم يمهلهم الله تعالى لشناعة قولهم بل عجّل لهم العقوبة، "الصَّاعِقَةُ" "أل": للعهد، قال الإمام الطبريّ: "وأصل "الصاعقة" كل أمر هائل رآه المرء أو عاينه أو أصابه؛ حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب، وإلى ذهاب عقل وغمور فهم، أو فقد بعض آلات الجسم صوتًا كان ذلك أو نارًا ، أو زلزلة، أو رجفًا"[59]. فأهلكهم الله تعالى بالصاعقة جهرة وهم ينظرون أهوالها، وفي ذلك عذاب فوق العذاب! والجزاء من جنس العمل.

"ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ"، وفي الأجل المستفاد من "ثم" التي للتراخي والمهلة العاطفة لفعل (البعث) شيء عظيم تنفرُ من تخيّله القلوب؛ لأن العطف بحرف التراخي والمهلة "ثُمَّ" يفيد بُعدَ ما بين الأخذ وبين البعث! وقد ذاقوا في ذلك الزمن من الأهوال ما ذاقوا، وشاهدوا ما شاهدوا، فقد أخذهم الله تعالى بالصاعقة، إن أخذه أليم شديد، ونحن نشاهد في الرؤيا القصيرة من الأهوال ما لا يوصف، فكيف بمن أذاقه الله تعالى الموت عقوبة! وأُدخِل عالمَ

[58] سورة البقرة آية (55-56)

[59] الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج83/2

البرزخ حينًا من الدهر!

وفي بعث الله تعالى لهم بعد الإماتة مِنَنٌ: منّة العفو، ومنة العبرة والموعظة وفسحة العمل.
"لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" للتعليل، واستعمل الفعل المضارع؛ ليدلّ على التجدّد والاستمرار؛ ليظلوا في شكرٍ متجدّد غير مجذوذ.

وفي هذه الحادثة موعظة بليغة للمتنطّعين والمتعنتين الذين يشاقّون الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، فلا يقفون عند حدود الله تعالى، ولا يكتفون بدلائل النبوّة، ولا يتأسّون بسلف الأمة في العلم والعمل، وهم طوائف شتّى منهم من حرّف العقيدة؛ اتباعًا لعقله القاصر، ومنهم من شطح، فاتخذ طريقًا إلى الله تعالى بمقاييس لم يأذن بها الله تعالى، ومنهم من أنكر السنة، ومنهم من كفّر أئمة الصحابة، ومنهم الداعي إلى مواكبة العصر وتنحية النصّ.
ولا تزال الأهواء تلد كلّ فاجر أثيم! ألا "فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ".

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[60].

إن الله تعالى يرزق من يشاء كيف يشاء، فلم يك تظليل الغمام ولا إنزال المنّ والسلوى بالرزق الذي يدركه بنو إسرائيل بالأسباب الماديّة المتاحة، وإنما هو رزق خالص ساقه الله تعالى؛ ليبلوهم أيهم أحسن عملًا.

وقصة بني إسرائيل مليئة بالعبر والعظات العظام، تتجلّى فيها سنن الله تعالى في الإنعام والمؤاخذة، فما إن تشَمُّ رائحة التكريم والتنعيم؛ حتى يدهمك نبأ الظلم والعصيان، ويعقبه النقصان والخسران؛ "إِذْ كَانَتْ شَكِيمَتُهُمْ لَمْ تُلَيِّنْهَا الزَّوَاجِرُ وَلَا الْمَكَارِمُ"[61].

"وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ" " "وَظَلَّلْنَا" التظليل بالغمام وقاية من القيظ والحرّ وأشعة الشمس المحرقة؛ لتسكن الأنفس، ويطيب المقام في ظلّ ظليل، وبرد لطيف، إنها نعمة من النعم الجليلة التي اختصّ الله تعالى بها بني إسرائيل، "أل": في "الْغَمَامَ" للعهد، أي: الغمام الذي تعرفونه، وأصل الغمام هو ما غمّ السماءَ فألبسها من سحاب وقتام، وغير ذلك مما يسترها عن أعين الناظرين، وقال بعض المفسرين لم يكن الغمام من جنس ما نعرف بل أبرد وأطيب ظلًّا[62].

و"أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى" و"أل": في و"الْمَنَّ وَالسَّلْوَى": للعهد، والمنّ، "هو اسم جامع لكل رزق حسن يحصل بلا تعب، ومنه الزنجبيل والكمأة والخبز وغير ذلك"[63]. و"السلوى" "اسم طائر يشبه السُّمانىَ ، واحده وجماعه بلفظ واحد ،كذلك السُّمانى لفظ جماعها وواحدها سواء"[64].

"كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ" "كُلُوا": أمر للامتنان. "مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ" "طيبات": نكرة مضافة تعمّ، "ما": موصول يعمّ.

---

[60] سورة البقرة آية (57)

[61] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1/ 512

[62] انظر: الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج2/ 90

[63] السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ج52/1

[64] الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج2/ 96

"وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" "وَمَا ظَلَمُونَا": الظلم: النقص "ظلم فلان فلانا حقَّه: إذا بخَسَهُ ونقصه"[65]. والفعل في سياق النفي يعمّ، والمعنى: ما ظلمونا أيّ ظلمٍ البتة، "وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" "أَنْفُسَهُمْ": نكرة مضافة تعمّ، وتقديم المفعول به على الفعل للتخصيص والقصر، فظلمهم عائد بالضرر على أنفسهم.

وتذييل الآية بهذه الجملة فيه إشارة إلى تفريط بني إسرائيل في جنب الله تعالى؛ إذ لم يقابلوا النعم بما يجب من الشكر؛ فباؤوا بالنقصان والخسران. وسنّة الله تعالى الجارية أن النعم تحفظ بالشكر، وبه تزداد، ويمحقها النكران والكفران.

وما تشهده جزيرة العرب من فتح البركات المودعة في باطن الأرض بلاء عظيم، لو أن المسلمين أحسنوا إدارة هذه الموارد، لكان لهم شأن في قيادة العالمين!

[65] الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج18/ 19

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[66].

إنها رحى السنن تَمْيْز الخبيث من الطيّب، تمحّص المصلحين وتمحق المجرمين. وفي هاتين الآيتين تذكير بنعمة فتح الأرض المقدسة للمؤمنين، وتبشير برحمة الله تعالى القريبة من المحسنين، وتحذير من الفسق عن أمر الله تعالى وتبديل شرعه.

إن الفتوحات العظام يختصّ بها الله تعالى من يستحقّها بعد تمحيصٍ وابتلاء، فما فُتِح بيت المقدّس ليوشع عليه السلام، ثمّ لطالوت، ولا مكة لمحمّد عليه الصلاة والسلم إلا بعد بلاء وتمحيص.

ولقد بذل موسى عليه السلام ما في وسعه؛ ليفتح الأرض المقدسة، لكنّ الوَهْن أخلد بقومه إلى الأرض، فقالوا مقولة الشقاق الشنيعة المليئة بالجبن والخور، وقلة الأدب، وقبيح التطاول على رسولهم عليه السلام، ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[67]، فحرّم الله تعالى عليهم الأرض المقدسة أربعين سنة يتيهون في الأرض، فكانت فترة كافية؛ للتمحيص وإعادة التأهيل؛ حتى ذهب كثير من أبناء ذلك الجيل الذي ضُرب عليه سرادق الذلّة والمسكنة في مصر، ثمّ نشأ جيلٌ مؤمن حرّ، تربّى على قيَم الإسلام في الفضاء الطلق، وترعرع في ظلال الغمام، وتنعّم بالمنّ والسلوى، فلما انتصروا على عدوهم، كان فيهم ظَلَمة فسقة لا يستحقون شرف الفتح، ففرض الله عليهم ما يميزهم، وينفي خبثهم، فأعلنوا فسقهم، ولم يكتفوا بالمخالفة بل تعدّوا، فبدّلوا ما أمروا به استخفافًا. فكان فسوق هؤلاء أقبح؛ لأنه ناشئ عن عنادٍ، وغرور بعد جريان فيوض النعم والمنن، ولذا كانت عقوبتُهم أشدَّ وأنكى.

---

[66] سورة البقرة آية (58-59)

[67] سورة البقرة آية (24)

"وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ" "ادْخُلُوا": أمر للوجوب، "الْقَرْيَةَ": المعهودة المعروفة، قال ابن كثير: "أصح القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس. وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام، ولما فتحوها أُمروا أن يدخلوا الباب -باب البلد- "سُجَّدًا" أي: شكرًا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وردّ بلدهم إليهم، وإنقاذهم من التيه والضلال"[68].

"فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا" "فَكُلُوا": أمر للإباحة، "حَيْثُ": ظرف يعمّ، "رَغَدًا" قيد للأكل زيادة في الامتنان والتكريم، والرغَدُ: الواسِعُ الهنيءُ.

"وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا": الأمر للوجوب "الباب": المعهود، "سُجَّدًا" قيد لهيئة الدخول.

"وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ"، "وَقُولُوا": أمر للإيجاب، "حِطَّةٌ" مصدر، والأسلوبُ خبريّ بمعنى الإنشاء للدعاء، "حطّ الله عنك خطاياك فهو يحطها حِطة بمنزلة الرّدة والحِدّة والمِدّة من حددت ومددت"[69]، بمعنى ضعْ عنّا ذنوبنا، "والأصل: النصبُ، بمعنى: حُطّ عنا ذنوبنا حِطةً. وإنما رُفِعَت؛ لتُعطي معنى الثبات"[70]، لأن الجملة الاسميّة تدلّ على الاستقرار والثبات. ويجوز أن يكون حِطة اسم هيئة "فِعلة من الحَطّ كالجِلسة والركبة، وهي خبر مبتدأ محذوف، أي أمرُنا حطةٌ، أي أن نحطّ في هذه القرية ونستقرّ فيها"[71]، "نَغْفِرْ لَكُمْ" جواب الطلب، "خَطَايَاكُمْ": نكرة مضافة تعمّ كلّ خطاياهم، "الْمُحْسِنِينَ": صفة صريحة تعمّ، وتوميء وتنبّه على أن الإحسان علةُ الزيادة. فمن أراد المزيد، فعليه بإحسان العمل "وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ".

"فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ" "الَّذِينَ ظَلَمُوا": الموصول يعمّ. "قَوْلًا" مطلق، و"غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ" صفة مقيّدة للقول المطلق، وكونهم بدّلوا القول المأمورين به بقولٍ غيره كاف لنزول العقاب بهم، ثمّ بيّنت السنّة القول الذي قالوه، "قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا، وَقُولُوا: حِطَّةٌ، فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى

---

[68] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج274/1

[69] انظر: الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج2/ 105

[70] الزمخشري، الكشاف مرجع سابق، ج142/1

[71] الزمخشري، الكشاف مرجع سابق، ج142/1-143

أَسْتَاهِهِمْ، وَقَالُوا حَبَّةٌ فِي شَعْرَة"[72]؛ ليدلّ على مبلغ السَّفَه والغرور الذي أصاب هذا الفريق.

"فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ"، "فَأَنْزَلْنَا" الفاء للتعقيب والترتيب، فلم يمهلهم الله تعالى بل عاجلهم بالعقوبة. وقال بعض المفسرين:"ولفظُ الإنزال للعذاب أبلغُ من لفظ الإرسال"[73]، وذلك أن في الإنزال معالجة وعناية أكثر، والإرسال إطلاق يدلّ على يُسْر وخفة، "الَّذِينَ ظَلَمُوا" يعمّ كلّ ظالم منهم، ومفهومه سلامة مَن لم يظلم، وصلة الموصول تومئ إلى أن الظلم سبب إنزال الرجز، "رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ" الرجز: العذاب، وتنكير "رجز" للتهويل، والتقييد بالصفة بكونه من السماء زيادة في التهويل، "بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ"، الباء للسببيّة، وما مصدريّة، بسبب فسقهم. فالظلم والفسوق سبب إنزال الرجز. ولا تزال العقوبات تتوالى على المستخفّين بحدود الله تعالى في مشارق الأرض ومغاربها، وكثير منهم لا يشعرون أنها جزاء تفريطهم في جنب الله تعالى!

72- رواه البخاري، رقم (3403)، ومسلم، رقم (7708).

73 السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج382/1

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[74].

يعرض القرآن الكريم الأزمات الجسام والمشكلّات العظام التي حلّت ببني إسرائيل، ويبيّن المخارج المثلى، والحلول الحسنى التي أنعم الله تعالى بها عليهم أحسن بيان؛ لتكون لمن خلفهم آية؛ وليزداد المؤمنون إيمانًا بأن اتباع الهدى لا ريب في حسن عاقبته، ولا بديل عنه! وأن اتباع الأهواء مهلكة.

إن وقائع قصّة بني إسرائيل لتدلّ دلالة قاطعة على أن الله تعالى يتولّى الصالحين برعايته، وأن الإسلام دينه الحقّ، وحبْله المتين الذي ينجّي به المستضعفين، ويرفع به الأزمات والمشكلات، وهو نوره المبين الذي يمحو به الظلمات، وروح منه يحيي بها القلوب، وهدى يُخرج به العباد من الضَّنْك إلى السعة والسعادة. ومهما عظمت الأزمات، وتطاولت الشدائد، فعند الله تعالى الفرج القريب، والمخرج الواسع، ففضله أعظم، وأجمل، وأكمل، ورحمته أوسع، وأنفع، وأجمع، فلا يتعاظمه شيءٌ أعطاه.

ومع ذلك فأعداء الإسلام ومن أعمى الله تعالى بصائرهم يزعمون أن الإسلام سبب الأزمات التي تعصف بالمسلمين، وأنه مشروع شاقّ لا يطاق!

وما فتئ العلمانيّون ومن شاكلهم من المغفلين يتخذون صلاة الاستسقاء هزوًا، ويسخرون ممّن ينادي إليها؛ لأن السحاب محكومة بقوانين الطبيعة لا الشريعة، ناسين أن الله تعالى يقضي بمشيئته ما يشاء كيف يشاء، فالاستسقاء في ديننا سنة نبويّة وكرامة من الله تعالى، وقد جعل الله تعالى للأسباب الشرعية أثرًا في الكون وهو أمر مجرّب مشاهد محسوس يدركه العقلاء، ولا ينكره إلا جحود، وما أصدق قول الله تعالى فيهم: "وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا

[74] سورة البقرة آية (60)

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ"، أي أن مشكلتهم عقليّة!

"وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ" الاستسقاء طلب الماء للسُّقيا أي للشرب، ولا يكون إلا عن حاجة إلى الماء، "لِقَوْمِهِ": النكرة المضافة تعمّ، والإضافة هنا للعهد أي لقومه المعروفين.

"فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا" يجيب الله تعالى دعوة عبده ورسوله موسى عليه السلام، فيقول له: "اضْرِبْ": الأمر للوجوب، ويحتمل أن يكون للإرشاد، "بِعَصَاكَ الْحَجَرَ": العصا المعروفة، "الحجر": "أل" " في الحجر إما للعهد أي: اضرب حجرًا معلومًا، وإما للجنس لأي حجر، "فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا"، الفاء للترتيب والتعقيب، فكان انفجار العيون عقب الضرب مباشرة إكرامًا وإنعامًا. وحرف الجرّ "مِنْهُ" لابتداء الغاية، أي: من الحجر نفسه لا مما حوله من الأرض آيةً بيّنة أخرى تدلّ على قدرة الله تعالى، وصدق رسوله عليه السلام، "اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا" تكثير العيون فضل من الله تعالى ورحمة، وفيه تيسير للوصول إلى الماء من غير صدام ولا ازدحام.
"قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ" و"كُلُّ أُنَاسٍ": كل من صيغ العموم. "أُنَاسٍ" نكرة مطلقة، وهو اسم جمعٍ لا واحد له من لفظه مثل: قوم، ورهط، ، وفريق، والمقصود به كلّ سِبط من الأسباط، وفي تمييز المشارب منعٌ من التنازع وحفظ لصلاح ذات البين.

"كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ" و"كُلُوا وَاشْرَبُوا": الأمر: للامتنان، "مِنْ رِّزْقِ اللَّهِ": لابتداء الغاية، "رزق": نكرة مضافة لمعرفة تعمّ. وبهذا يتبيّن أن سنّة الله تعالى في العطاء والإنعامِ التوسيعُ والبسط؛ لأن الله تعالى غنيّ كريم وهّاب.

"وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ":
-"وَلَا تَعْثَوْا" لا ناهية، والنهي للتحريم، والفعل في سياق النهي يعمّ كلّ أنواع العِثِيّ. قال السمين الحلبي: "والعِثِيُّ والعَيْثُ: أشدُّ الفسادِ، وهما متقاربان. وقال بعضُهم: إلاَّ أنَّ العَيْثَ أكثرُ ما يُقال فيما يُدْرَك حِسَّاً، والعِثِيُّ فيما يُدْرَكُ حُكْماً، يقال: عَثَى يَعْثَى عِثِيًّاً وهي لغةُ

القرآنِ"[75].

-"فِي الْأَرْضِ" "أل" للعهد أي: الأرض التي يتيهون فيها، ويجوز أن تكون للجنس، فتعمّ، قال أبو حيان: "الجمهورُ على أنها أرض التيه، ويجوز أن يريدها وغيرها مما قدّر أن يوصلوا إليها فينالها فسادهم، ويجوز أن يريد الأرضين كلّها، و"أل": لاستغراق الجنس. ويكون فسادهم فيها من جهة أن كثرة العصيان والإصرار على المخالفات والبطر يؤذن بانقطاع الغيث، وقحط البلاد، ونزع البركات، وذلك انتقام يعمّ الأرض بالفساد"[76].

-"مفسدين" حال مؤكدة للفعل، "ويُحتمل أن تكونَ حالاً مبيّنَةً، لأنَّ الفسادَ أعمُّ والعِثِيّ أخصُّ"[77]، والتأسيس أولى من التأكيد، وقال أبو السعود: "وقيل: إنما قيد به؛ لأن العَثْيَ في الأصل مطلقُ التعدي وإن غلب في الفساد وقد يكون في غير الفساد كما في مقابلة الظالم المعتدي بفعله"[78]. والمعنى: مفسدين الدين والدنيا وما منّ به عليكم من النعم؛ وقد ورد هذا النهي في هذا الموطن من سياق قصّة بني إسرائيل بعد تأمين الغذاء، والماء، وتحسين سبل المعيشة في مشهد جميل، وظلّ ظليل، ومنّ وسلوى، وعيون جارية بعد اكتمال منظومة المنن التسع بتعداد الرازيّ[79]؛ لأن شرط دوام النّعم وبقاء الأمم الإصلاحُ في الأرض وترك الفساد! وإن سنة الله لقائمة بالمرصاد. ولهذا كان هذا التذييل جامعًا لمقصدين عظيمين:

الأول: وقاية القوم من إفسادهم في الأرض بعد صلاحها حفظًا للضروريات، والحاجيّات، والتحسينات أو -بتعبير معاصر- حفاظًا على الدين والمجتمع والبيئة.

الثاني: اتقاء سخط الله تعالى وعقابه عاجلًا وآجلًا.

ولقد أنعم الله تعالى على بني إسرائيل كثيرًا، وأخذهم بذنوبهم كثيرًا؛ والناظر في سلوكهم في هذا العصر يدرك كيف يَعثَون في الأرض كلّها مفسدين اغترارًا بقوّتهم وسلطانهم، وكذلك حال حلفائهم من النصارى. لقد نسي هؤلاء جميعًا سنة الله في أسلافهم، وأن النكران والعصيان يوردان المهالك.

---

[75] السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج388/1

[76] أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة: 1420 هـ ج1/ 373

[77] السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج1/ 389

[78] انظر: أبا السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، مرجع سابق، ج1/ 106

[79] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج527/3

وتالله ليُنجــزنّ الله تعــالى وعــده للــذين آمنــوا وعملــوا الصــالحات، وليســتخلفنّهم في الأرض كمــا استخلف الـذين مـن قـبلهم، وليمكـننّ لهـم ديـنهم الـذي ارتضـى لهـم، وليبـدلنّهم مـن بعـد خـوفهم أمنًا، وما في وعد الله من شكّ! إنهم يرونه بعيدًا! وإنا لنراه قريبًا.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[80].

يتجلّى في الآية الكريمة قانون الاستبدال بشقّيه الدنيويّ والدينيّ في كلمات معدودات لو اجتمع علماء الأرض؛ لتفصيلها وتنزيلها على أحوال العباد، وما يجري، وما سيقع أو يتوقّع، لما استطاعوا. فتفضيل الأدنى على الذي هو خير يفضي إلى التخلّف والانحطاط في كلّ المجالات؛ لأن التنمية والتمكين لا يتأتّيان إلا بتحصيل الأعلى وترك الأدنى عند التزاحم في المجال الاقتصاديّ، والاجتماعيّ، والثقافيّ، والسياسيّ، والإعلاميّ، والتربويّ، والدعويّ، والتعليميّ، والصناعيّ، والبيئيّ، وغيرها.

إن أحوال الأفراد والشعوب في تبدّل دائم، فمنهم من يتقدّم؛ لحسن تصرّفه وأخذه الذي هو خير عوضًا عن الأدنى، ومنهم من يتأخّر؛ لتفريطه واختياره الذي هو أدنى بدلًا عن الذي هو خير. فالاستبدال إما بترك الأدنى وأخذ الأحسن، فذاك تقدّم وعلو وصلاح، وإما استبدال الشيء بمثله، فهذا عبث لا يفعله عاقل؛ لأنه مضيعة للوقت والجهد، وإما استبدال بترك الأعلى والأحسن وأخذ الأدنى، فهذا تفريط وتأخّر وانحطاط.

وقد تضمّنت الآية نموذجين من نماذج الاستبدال في حياة بني إسرائيل.

النموذج الأول: يلخّصه طلب بني إسرائيل: "فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا". وهذا طلب استبدالٍ غيرِ مرضيّ؛ لأنه يفضي إلى التراجع، والتأخّر، وفق سنن الله تعالى الكونيّة؛ فالأسباب الكونية في المزروعات، والمصنوعات، والوظائف، وغيرها، منها الشريف، الطيب، الرفيع، ومنها الدنيء، الخبيث، الوضيع، فمن أخذ

[80] سورة البقرة آية (61)

بأشـراف الأسـباب ومعاليهـا، عـلا وارتفـع وسـاد وتقـدّم، ومـن أخـذ بالسفْسـاف الأدنى مـن الأسـباب فاتتـه المعـالي والمكـارم، وسـبقه أهـل العـزائم، وربمـا انحـطّ، وتخلّـف، واسـتخفّ بـه غـيرُه، واتخذه سخريّا.

النمـوذج الثـاني: اسـتبدالٌ يكـون بـترك الطاعـة والإحسـان وفعـل العصـيان والعـدوان، وقـد نشـأ عـن هـذا الاسـتبدال ضـرب الذلّـة والمسـكنة وحلـول غضـب الله تعـالى علـى بـني إسـرائيل وفـق سُـنة شرعيّة: هي سنة الأخذ بالذنب.

وَإِذْ قُلْـتُمْ يَا مُوسَـى لَـنْ نَصْـبِرَ عَلَـى طَعَـامٍ وَاحِـدٍ"، إعـلان جـافٍ للتضـجّر والتـذمّر، واخـتلاق أزمـة بسبب انحطاط الهمّة.

"لَـنْ نَصْـبِرَ عَلَـى طَعَـامٍ وَاحِـدٍ": النفـي ب"لـن" للتأبيـد، والنفـي ب"لـن" في الأفعـال كـالنفي ب"لا" النافيـة للجـنس في النكـرات[81]. والفعـل في سـياق النفـي يعـمّ كـلّ أنـواع الصـبر، فـلا صـبر لهـم علـى طعـام واحـد البتـة! "طعـام": النكـرة في سـياق النفـي تعـمّ، و"واحـد": صـفة تخصصـه، والمقصود: النوع المعهود، ومفهوم المخالفة: سنصبر على طعام متعدّد.

"فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا":
"فَـادْعُ": صـيغة افعـل للالتمـاس والتوسـل بدعائـه، "مِمَّـا": "مـا" موصـول يعـمّ، "الْأَرْضُ" "أل" للعمـوم، "مِـنْ بَقْلِهَـا وَقِثَّائِهَـا وَفُومِهَـا وَعَدَسِـهَا وَبَصَـلِهَا": نكـرات مضـافات تعـمّ، قـال الزمخشـريّ:

[81] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1/ 522

"البقل ما أنبتته الأرض من الخضر. والمراد به أطايب البقول التي يأكلها الناس كالنعناع والكرفس والكراث وأشباهها. وقرئ (وقثائها) بالضم. والفوم: الحنطة. ومنه فوّموا لنا، أي: اخبزوا. وقيل الثوم"[82].

"قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ" "الَّذِي" في الموضعين: موصول يعمّ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ، وهذا الاستفهام الجليل النافع صالح للتوجيه إلى عامّة الناس؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقد أُعمِل فقه الموازنات في أمور هي من المباحات وترتّب على الإخلال به توبيخٌ وتقريع، فكيف بإعماله في الموازنة بين العظائم، لترك الأدنى واقتناء المعالي!

"اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ" "اهْبِطُوا مِصْرًا": أمر للإرشاد، أو للتهديد والتهكّم بتذكيرهم بما حاق بهم في مصر، و"مصرًا": بالتنوين نكرة مطلقة، ويجوز أن يراد به مصر يوسف، ولم تمنع من الصرف؛ لسكون الحرف الأوسط، وقد ورد لفظ مصر في القرآن خمس مرات، منها أربع يقصد بها البلد المعروف، وهذا الخامس يحتمل، وفي استعمال لفظ الهبوط الذي يعني الانتقال من الأعلى إلى الأدنى، وفي التذكير بلفظ مصر دار العذاب تقريعٌ وتنفير، ويؤكّد ذلك ما تلاهما من ذكر الذلة والمسكنة، فانتظم السياق على مقصد التحذير والترهيب. و"مَا سَأَلْتُمْ": ما موصول عامّ.

لقد كفى الله تعالى بني إسرائيل مؤنة الاشتغال بطلب الطعام والشراب؛ ليتفرغوا لعبادته ويستعدّوا؛ لمقاتلة عدوّهم، وفتح الأرض المقدّسة الموعودة، فهم أشبه بالجند في معسكرات التدريب، فلما كان ما طلبوه فيه تفضيل للأدنى على الذي هو خير، ينبئ عن إخلاد إلى

[82] الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج145/1

الأرض، جُعل تحصيله في هبوط مصر، وفي هبوط الأمصار أخطار كبار يجفل أمثالهم عن تقحّمه!

"وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ":

"الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ": "أل": لتعريف الجنس، "بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ" غضب مطلق، مقيّد بالصفة للتهويل والتعظيم. "ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ": الباء للتعليل، "بِآيَاتِ اللَّهِ": نكرة مضافة تعمّ، "النَّبِيِّينَ": "أل": للعهد، "بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ": "ما": مصدرية والمصدر المنسبك منها ومن الفعل يعمّ والتقدير: بعصيانهم وعدوانهم. هذه سنة لا تتخلّف ولا تتبدّل.

وقد خاطب الله تعالى بهذه الآية الخَلَفَ من بني إسرائيل في عهد محمّد عليه الصلاة والسلام، فلم يعتبروا، بل اتبعوا سنن المجرمين من أسلافهم، فكفروا بآيات الله تعالى، وباشروا الأسباب؛ لقتل خاتم رسل الله تعالى محمّد عليه الصلاة والسلام، فعاقبهم الله تعالى كما عاقب آباءهم، وضرب عليهم الذلّة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله تعالى بسبب عصيانهم واعتدائهم؛ ليعتبر أولو الأبصار.

إن التحوّلات الضخمة والعملاقة في حياة الأمم راجعة إلى حسن استثمار الموارد؛ باختيار الواقع الأعلى على الأدنى (للانتقال من الواقع المتخلّف إلى مستقبل متقدّم). كما أن انحطاط الأمم القويّة وسقوطها وتخلّفها يحصل باستعمالها أسباب الانحطاط بدلًا من أسباب القوة والتقدّم. وما يفعله المسارعون في اتباع المغضوب عليهم والضّالّين، وفتح الديار والخزائن لمن يتربّص بالأمة الدوائر خطيئة ماحقة، وذلة ساحقة! وإن سنة الاستبدال بهم لاحقة.

نبرأ إلى الله تعالى من كلّ ما لا يرضيه، ونجدّد ولاءنا لله تعالى، ولرسوله عليه الصلاة والسلام، ولأئمتنا ذوي المقاصد النبيلة، والعزائم الجليلة المشدودة إلى وجهتها السنيّة ابتغاء مرضاة ربّ البريّة، وللمؤمنين عامّة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[83].

آية تفيض بالبشرى! فطوبى لمن تأمّل فيها مليّا! فإني لأجد لقول الله تعالى: "فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ" رَوحًا وأنسًا يملأ الجوانح لا تتسع كلماتي لبيانه؛ إنها تقيم العبد الفقير، والمملوك الصغير مقام العامل الأثير لدى العليّ الكبير! عزّة وأيّ عزّة، وكرامة وأيّ كرامة أن يرضى بك ربّ العالمين أجيرًا تعمل في حماه، فيكون لك جارًا ومجيرًا! يوجب لك أجرًا، وهو ربّك ومولاك، فيجعله لك ذخرًا، ويرفعك به ذكرًا في الأولى والأخرى! اللهم فاجعلنا ممّن اجتبيتهم واصطنعتهم لنفسك.

إن فضل الله وحسن جزائه غير مقصور على سلالة، ولا محصور في شَعْب، لا مقطوع، ولا ممنوع، بل هو مبسوط لكلّ مَن آمن وعمل صالحًا من أيّ أمة انحدر أصله، فسنّة الهداية والجزاء جارية من غير تفريق بين العباد، فمن اتبع الهدى فاز وأفلح، ومن لم يؤمن وَيعمَلْ صَالِحًا خاب وخسر.

إن هذه الآية تهدم عُبِّيَّات الجاهليّة كلّها (عُبّيّة الجاهليّة: قَالَ الْخَطَّابِيُّ: "الْعُبِّيَّةُ الْكِبْرُ وَالنَّخْوَةُ وَأَصْلُهُ مِنْ الْعَبِّ وَهُوَ الثِّقَلُ يُقَالُ: عُبِّيَّةٌ وَعِبِّيَّةٌ بِضَمِّ الْعَيْنِ وَكَسْرِهَا"[84]). وتحرّر القلوب والشعوب من الأزمات الناجمة عن التمييز العنصريّ، والطبقيّ، والتفاضل والتفاخر بالأنساب والأجناس وغيرها من وشائج الجاهليّة في مشارق الأرض ومغاربها.

[83] سورة البقرة آية (62)

[84] الخطابي، أحمد بن محمد، معالم السنن، المطبعة العلمية - حلب، ط1، 1932م، ج4/ 148

"إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ"

-"إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا" الاسم الموصول للعموم، وهو معرَّف بالصلة. فالإيمان هو الوصف الجامع المانع المستقل بالتعريف بهذا الفريق فهو أشرف الأوصاف المذكورة في هذه الآية وأرفعها، وأشملها وأوسعها، وأفضلها وأجملها، فهذه التسمية الشريفة تجمع البشريّة في صعيد واحد تحت سقف واحد، وتدحض أوهام المتعالين على العباد الزاعمين أنهم أبناء الله تعالى، وأحباؤه، والمستعلين بأنسابهم وأجناسهم.

-"وَالَّذِينَ هَادُوا": الاسم الموصول للعموم، و"هَادُوا" تابوا[85]. وللتنصيص على الذين هادوا بعد أن وصف بني إسرائيل بما وصفهم مقاصدُ، منها: فتح باب البشرى، وتجديد الصلة بالله تعالى، والترغيب في التحلّي بوصف الإيمان والعمل الصالح، والتخلّي عن عُبيّة جاهليتهم.

-"وَالنَّصَارَى" "أل": للاستغراق والعموم.

- "وَالصَّابِئِينَ" و"الصابئون جمع صابئ، وهو المستحدث سوى دينه دينًا، كالمرتد من أهل الإسلام عن دينه. وكل خارج من دين كان عليه إلى آخر غيره، تسميه العرب: صابئا"[86].

-"مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"، يبرز منطوق الآية سنّة الجزاء الحسن تبشيرًا وترغيبًا، وأما مفهوم المخالفة: فيتضمّن سنّة الأخذ تحذيرًا وترهيبًا، وتقديره: من لم يؤمن بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَيعمَلْ صَالِحًا فلا أجر لهم عند ربهم وَعَلَيْهِمْ خَوْفٌ وَهُمْ يَحْزَنُونَ. ومن لطف الله تعالى أن يجعل العباد بين دفتي الرجاء والخوف بالترغيب والترهيب، والتبشير والتحذير.

[85] الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج2/ 143

[86] الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج2/ 145

"مَـنْ آَمَـنَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الْآَخِـرِ وَعَمِـلَ صَـالِحًا" "مَـنْ" اسـم شـرط يعـمّ، واسـم الشـرط وخـبره خـبر "إن"، ويجـوز أن يكـون لفـظ "مـنْ" اسمًـا موصـولًا، وهـو بـدل بعـضٍ مـن "الـذين"، فهـو مخصّـص لمـا سبق ذكره من العمومات.

فَلَهُـمْ أَجْـرُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِـمْ" "أجْـرُهُمْ": نكـرة مضـافة تعـمّ، و"عِنْـدَ رَبِّهِـمْ" شـبه الجملـة حـال؛ لتفخـيم الأجـر وتعظيمـه، "وَلَا خَـوْفٌ عَلَـيْهِمْ وَلَا هُـمْ يَحْزَنُـونَ ": النكـرة والفعـل في سـياق النفـي عامّـان. فـلا خـوف ممّـا هـو آت، ولا حـزن علـى مـا فـات، وقـد "نبّـه الله تعـالى علـى أن مَـنْ أحسـن مـن الأمـم السـالفة وأطـاع، فـإن لـه جـزاء الحسـنى، وكـذلك الأمـر إلى قيـام السـاعة؛ كُـلّ مـن اتبـع الرسـول النبيّ الأمـيّ فلـه السـعادة الأبديـة، ولا خـوف عليهم فيمـا يسـتقبلونه، ولا هُـمْ يحزنـون علـى ما يتركونه ويُخلّفونه"[87].

[87] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج1/ 284

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[88]

"خذوا ما آتيناكم بقوة وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"

إن هذه الآية تُقدّمُ العلاجَ الشافي، والحلّ الكافي لأزمة البشريّة عامّة والمسلمين خاصّة! خذوا الرسالة بقوّة، وبلغوا ما فيها؛ لكي تتقوا سخط الربّ، وعقوبته، وتتقوا شرور أنفسكم، وبغيها، وطغيانها! وضنك المعيشة وسوء العاقبة.

فإن زللتم، فتوبوا، ففضل الله أعظم ورحمته أوسع، ويده سَحّاء (دائمة العطاء) الليلَ والنهار لا يَغيضها (ينقصها) شيء، مبسوطة للتائبين، والطالبين، والراغبين، والراهبين.

"وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ" "مِيثَاقَكُمْ": نكرة مضافة من صيغ العموم، والمراد به ميثاق مخصوص، وقد نصّ عليه في الآيات (83-85) من سورة البقرة، وأما "الطُّورَ" فقال السمين[89]:"الطُّور: اسمٌ لكلَّ جبل، وقيل لما أَنْبَتَ منها خاصةً دونَ ما لم يُنْبِتْ"، و"أل" للعهد والمراد به جبل مخصوص، وقد "رُفِع الجبلُ على رؤوسهم؛ ليُقروا بما عوهدوا عليه، ويأخذوه بقوة وحزم وهمة وامتثال"[90].

[88] سورة البقرة آية (63=64)

[89] السمين، الدر المصون مرجع سابق، ج408/1

[90] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج1/ 287

"خُـذُوا مَـا آتَيْنَـاكُمْ بِقُـوَّةٍ"، "خُـذُوا": أمـر للوجـوب، والأخـذ مقيّـد بالمفعـول بـه وبشـبه الجملـة: "مَـا آتَيْنَـاكُمْ بِقُـوَّةٍ"، و"مـا": اسـم موصـول يعـمّ كـلّ مـا آتاهـم مـن الأشـياء الحسـيّة المعنويّـة، والسـياق يخصّصـه بمـا آتاهـم الله مـن التـوراة[91]، "بقـوة" التنكـير للتعظـيم، ولـيس للإطـلاق، والقـوّة: الجدّ والاجتهاد والعزيمة.

"وَاذْكُـرُوا مَـا فِيـهِ": الأمـر بـذكر مـا فيـه للوجـوب، والموصـول للعمـوم، اذكـروه ولا تنسـوه، وبلغـوه ولا تكتمـوه، ولابـن عاشـور بيـان جميـل في دلالـة الأمـر بالـذكر في قـول الله تعـالى: "وَاذْكُـرْنَ مَـا يُتْلَـى فِي بُيُـوتِكُنَّ مِـنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَـةِ"، قـال رحمـه الله تعـالى: "وَفِعْـلُ اذْكُـرْنَ يَجُـوزُ أَنْ يَكُـونَ مِـنَ الـذِّكْرِ بِضَـمِّ الـذَّالِ وَهُـوَ التَّـذَكُّرُ، وَهَـذِهِ كَلِمَـةٌ جَامِعَـةٌ تَشْـمَلُ الْمَعْـنَى الصَّـرِيحَ مِنْـهُ، وَهُـوَ أَنْ لَا يَنْسَـيْنَ مَـا جَـاءَ فِي الْقُـرْآنِ وَلَا يَغْفَلْـنَ عَـنِ الْعَمَـلِ بِـهِ، وَيَشْـمَلُ الْمَعْـنَى الْكِنَـائِيَّ وَهُـوَ أَنْ يُـرَادَ مُرَاعَـاةُ الْعَمَـلِ بِمَـا يُتْلَـى فِي بُيُـوتِهِنَّ مِمَّـا يَنْـزِلُ فِيهَـا وَمَـا يقـرأه النبـيء صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ فِيهَـا، وَمَـا يُبَـيِّنُ فِيهَـا مِـنَ الـدِّينِ، وَيَشْـمَلُ مَعْـنًى كِنَائِيًّـا ثَانِيًـا وَهُـوَ تَـذَكُّرُ تِلْـكَ النِّعْمَـةِ الْعَظِيمَـةِ أَنْ كَانَـتْ بُيُـوتُهُنَّ مَوْقِعَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ.

وَيَجُـوزُ أَنْ يَكُـونَ مِـنَ الـذِّكْرِ بِكَسْـرِ الـذَّالِ، وَهُـوَ إِجْـرَاءُ الْكَـلَامِ عَلَـى اللِّسَـانِ، أَيْ بَلِّغْنَـهُ لِلنَّـاسِ بِأَنْ يَقْـرَأْنَ الْقُـرْآنَ وَيُـبَلِّغْنَ أَقْـوَالَ النَّـبِيءِ صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ وَسِـيرَتَهُ. وَفِيـهِ كِنَايَـةٌ عَـنِ الْعَمَـلِ بِـهِ[92].

"لَعَلَّكُـمْ تَتَّقُـونَ"[93] "لعـل" للتعليـل، وقـد حـذف المفعـول بـه؛ للدلالـة علـى العمـوم، فيـدخل فيـه كلّ ما يُتقى من ضرّ وشرّ وفساد وعذاب عاجل وآجل.

"ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ".

"ثُمَّ تَـوَلَّيْتُمْ مِـنْ بَعْـدِ ذَلِـكَ"، تـوبيخ وتثريـب تـذوب منـه القلـوب الحافظـة للجميـل حيـاء مـن الله تعـالى! أبعـدَ رفـع الجبـل فـوقهم كأنـه ظُلّـة يتولّـون ناقضـين عهـد الله تعـالى وميثاقـه؟ أيّ زلّـة اسـتزلّهم الشيطان!

"فَلَـوْلَا فَضْـلُ اللَّهِ عَلَـيْكُمْ وَرَحْمَتُـهُ لَكُنْـتُمْ مِـنَ الْخَاسِـرِينَ"، "فَضْـلُ اللَّهِ عَلَـيْكُمْ وَرَحْمَتُـهُ"، والفضـل

[91] انظر: الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج2/ 160

[92] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج22/ 18

[93] الزمخشري، الكشاف مرجع سابق، ج147/1

والرحمة: نكرتان مضافتان للعموم، فتح لباب الرجاء الجميل وحسن الظن بالله تعالى، ونسف لأغلال القنوط، وأقفال اليأس، فالتوبة والهداية والاستقامة والثبات كلّها من فضل الله تعالى ورحمته، ولو ترك الله العباد وشأنهم لهلكوا وخسروا خسرانًا مبينًا، "الْخَاسِرِينَ": صفة صريحة تعمّ كلّ خاسر. أيجرؤ أحدٌ بعد هذا البسط والإكرام أن يضيّق ما فتحه الله تعالى من خزائن فضله ورحمته وما ادّخره! فأبشروا، ويسّروا، وأمّلوا ما يسرّكم.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾[94].

في هذه الواقعة: تحذير، وتذكير.

تحذير من الاعتداء على حرمات الله تعالى! فإن الله القويّ العزيز بالمرصاد.

وتذكير ينفع المتقين الناصحين.

والقصّة قد وردت في سورة الأعراف مفصّلة، قال الله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[95].

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِين".

"وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ" "الَّذِينَ": موصول يعمّ، "السَّبْتِ": عموم عرفيّ، "وأصلُ السَّبتِ الهدوءُ والسكون في راحة ودعة، ولذلك قيل للنائم "مسبوت"؛ لهدوئه وسكون جسده واستراحته، كما قال جل ثناؤه:(وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا) أي راحة لأجسادكم. وهو

[94] سورة البقرة آية (65=66)

[95] سورة الأعراف الآيات (163=166)

مصدر من قول القائل: سَبَتَ فلان يَسبِتُ سَبْتا"[96].

تبيّن الآية مقدار الاعتداء بالمنطوق: "اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ"، والمفهوم أنهم لم يعتدوا في غيره من الأيام. كما بيّنت الآية نوع العقاب والنَّكال، وفيها درس عظيم في فقه الموازنات بتقديم حفظ الدين على غيره، فقد أوجب الله تعالى على بني إسرائيل تعظيم يوم السبت، وابتلاهم بإتيان الحيتان إليهم شُرَّعًا يوم سبتهم المعظّم، ولا تأتيهم في غير يوم السبت، كما بيّن ذلك الله تعالى بقوله: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[97]. فلم يثبتوا على الطاعة، بل استحلّ فريق منهم ما حرّم الله عليهم يوم سبتهم، وظاهرُ القرآنِ أنهم باشروا الاعتداء يوم السبت وحده.

ولم يذكر النصّ وسيلة الاعتداء، وزعم بعض المفسرين أنهم توسّلوا بذرائع وحِيَلٍ ظاهرها السلامة، وباطنها الفسوق والعصيان، قال ابن كثير: (اذكروا) "يا معشر اليهود، ما حلّ من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره، إذ كان مشروعًا لهم، فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت، بما وضعوا لها من الحبائل والبِرَكِ قبل يوم السبت، فلما جاءت يومَ السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت. فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة، والقردة أشبهُ شيء بالناس في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة. فكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر، ومخالفة له في الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم"[98].

واليهود أئمةُ سوءٍ في الاعتداء واستباحةِ ما حرّم الله تعالى بالتعمّد الذي لا يشوبه عذر، وبالتذرّع بالحيّل الخبيثة التي ظاهرها مراعاة أمر الله تعالى، وباطنها التعطيل والمعارضة كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: "قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ ثُمَّ بَاعُوهُ

---

[96] انظر: الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج2/ 174

[97] سورة الأعراف آية (163)

[98] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج288/1 بتصرف يسير.

فَـأَكَلُوا ثَمَنَـهُ"[99]، قـال الخطـابيّ في معـالم السـنن "جملوهـا معناهـا أذابوهـا حـتى تصـير وَدَكـاً فيـزول عنهـا اسـم الشـحم، وفي هـذا بيـان بطـلان كـل حيلـة يحتـال بهـا، توصـل إلى محـرم، وأنـه لا يتغـير حكمُـه بتغـير هيئتـه وتبـديل اسمـه"[100]. وعـن أبي هريـرة –رضـي الله عنـه– أن النـبيّ –صـلى الله عليه وسلم– قَالَ: "لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود، فتستحلّوا محارم الله بأدنى الحيل"[101].

ومـا نشـهده اليـوم مـن الاعتـداءات علـى حرمـات الله تعـالى وعلـى مقـام رسـولنا صـلى الله عليـه وسـلم هـو مـن تـدبير اليهـود وصـنع النصـارى، وبـين أظهـرنا مـن بـني جلـدتنا قـوم عـادون! لا يَعْـدُون في الجمعـة وحـدها! بـل مـردوا علـى الاعتـداء بمـولاة أعـداء الـدين، ومعـاداة المصـلحين، وتـرك الواجبـات، وارتكـاب المحرمـات! وقـد تفرقنـا إلى ثـلاث أمـم: أمّـة معتديـة، وأمّـة سـاكتة عـن المنكـر تثـبّط الناصـحين، وأمّـة هاديـة مهتديـة تأمـر بالمعـروف وتنهـى عـن المنكـر، أولئـك لهـم البشـرى "وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ".

"فَقُلْنَـا لَهُـمْ كُونُـوا قِـرَدَةً خَاسِـئِينَ"، "كُونُـوا" الأمـر للتكـوين والتصـيير، فصـاروا قـردة صـاغرين كمـا أراد الله تعـالى، "خَاسِـئِينَ": مبعـدين صـاغرين، وخَسَـأَ: صـغُر صـغارًا، وبَعُـدَ ذلـيلًا. فلمـا اسـتهانوا بأمـر الله تعـالى، أهـانهم الله تعـالى بسـلب الصـورة المكرمـة الحسـنة، ومسـخهم قـردة؛ لأنهـا الخِلقـة التي تناسب خبث باطنهم!

فَجَعَلْنَاهَـا نَكَـالًا لِمَـا بَـيْنَ يَـدَيْهَا وَمَـا خَلْفَهَـا وَمَوْعِظَـةً لِلْمُتَّقِـينَ" "لِمَـا بَـيْنَ يَـدَيْهَا وَمَـا خَلْفَهَـا": "مـا" موصـول يعـمّ، "لِلْمُتَّقِـينَ": صـفة صـريحة تعـمّ. فكانـت العقوبـة نَكـالًا لمـا بـين يـديها مـن المعتـدين ولمـن يجـيء خلفهـم فيسـير علـى طـريقتهم، وهـي موعظـة وعـبرة للمتقـين: الـذين يتقـون مـا يُسخِط الله تعالى من ترك الواجبات واجتراح المنكرات بالوسائل الصريحة أو الحِيَل.

---

[99] البخاري ح 4633.

[100] الخطابي، معالم السنن، مرجع سابق، ج3/ 133

[101] ابن بطة، عبيد الله بن محمد العُكْبَري، إبطال الحيل، المكتب الإسلامي – بيروت، ط2، 1403ه، ح46، وجوّد إسناده ابن كثير في تفسيره، مرجع سابق، ج3/ 493 ، وحسنه الألباني في تحقيقه كتاب صفة الفتوى والمفتي والمستفتي، لأحمد بن حمدان الحراني الحنبلي، المكتب الإسلامي – بيروت، ط4،1404ه، ص28

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾[102].

تتوالى الآيات مذكّرة بني إسرائيل بأنباء ما قد سلف من آبائهم من الشقاق، والاعتداء، وسيّء الأخلاق، وبما أنعم الله تعالى به عليهم، وما أنزل بهم من العقوبات. وقد ورد في هذه القصّة حلٌّ فصلٌ لأزمة اجتماعية شديدة الوطأة؛ بسبب جريمة قتلٍ عمدٍ. فالقصّة مليئة بالآيات البيّنات، والعبر والوعظات للمخاطبين بالرسالة الخاتمة كافّة، ومن ذلك جملة من الأصول الجامعة:

الأصل الأول: الحكمة في اتخاذ الوسائل والتدابير الممكنة؛ لمعالجة الأزمة من جذورها بإحقاق الحقّ وإبطال الباطل، ولا يجوز تعليق المشكلات وإهمالها؛ لأنه يفضي إلى تكثير مفاسدها، وتفويت المصالح.

الأصل الثاني: الرفق والصبر في بيان الحقّ وتبليغ الشرع.

الأصل الثالث: وجوب الاستجابة لأمر الله تعالى بحسن السمع والطاعة، والمسارعة إلى العمل، وإن لم تظهر لنا حكمة التشريع ابتداء. وقد عالجت الآيات ظاهرتين متضادّتين تقدحان في حسن الاستجابة:

الظاهرة الأولى: ظاهرة الغلو والتكلّف في طلب تقييد الأحكام المطْلَقة، فقد جعل الله تعالى في إطلاق الأحكام توسيعًا وتخفيفًا وتيسيرًا للعباد، فلا يجوز تقييد الأحكام بما لم يأذن به الله تعالى؛ لأنه ظلم وعدوان، وفيه ضرر، وحرج، وقبح، ويجب الاقتصار على ما ورد في شريعة الله تعالى من القيود.

الظاهرة الثانية: ظاهرة التمرُّد والاحتيال للانسلاخ من الشرع، وهي ظاهرة أخبث من الظاهرة

[102] سورة البقرة آية (67=68)

السابقة، وتوافقها في المآل والعاقبة؛ إذ تُفضيان إلى نتيجة واحدة هي تعطيل الشريعة.

وقد كثرت في هذا العصر الذرائع؛ لتعطيل نصوص القرآن والسنة بالأهواء، ومنها ذريعتان شائعتان:

الأولى: ذريعة التمسّك بنصوص القرآن والسنة كما يفعل بعض الغلاة؛ إذ يتمسّكون ببعض الكتاب، وينزلونه في غير مواضعه، ويحرّفون الأدلة المتواترة عن مواضعها؛ حتى أفضت بهم مخالفة القواطع إلى مناصرة المجرمين في هدم الدين.

الثانية: ذريعة التطوير والتحديث، ومواكبة العصر! وقد تفنّن كثير من حملة الفكر السّياسيّ، والاقتصاديّ، والإعلاميّ، والاجتماعيّ وغيرها، في تعطيل كثير من أحكام الشريعة واستبدالها بما يخالف شرع الله تعالى من أهواء البشر، وقد نُسِب بعضُ ذلك جهلًا وظلمًا إلى الفقه المقاصديّ والفكر الإسلامي المستنير، فعطّلوا أحكام الشريعة السمحة، واستباحوا ما حرّم الله تعالى الذي لا تخفى عليه خافيةٌ.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ".

"وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً" "لِقَوْمِهِ": نكرة مضافة تعمّ، "يَأْمُرُكُمْ": أمر للوجوب، وهو بصيغة الخبر بلفظ يدلّ على الطلب بمادته الأصلية: أمر، "بَقَرَةً": نكرة مطلقة تصدق على كل ما يسمّى "بقرة"، وفي هذا الإطلاق تخفيف وتيسير.

"قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا"، الاستفهام فيه معنى الاستنكار، فوقعوا في منكر عظيم؛ إذ لا يجوز أن يُظنّ بموسى عليه السلام مثلُ هذا الظنّ، ولكنّ القوم غلاظ القلوب، حملهم جهلهم على هذا.

فاستعاذ موسى عليه السلام بالله العليّ العظيم أن يكون من الجاهلين، وفي هذه العبارة اعتصام بالله تعالى، وبراءةٌ من جهل القوم. و"الْجَاهِلِينَ": صفة صريحة مقرونة ب"أل" تعمّ. وبهذا يُعلم أن الجهل داء عظيم يورد أصحابه المهالك، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

"قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ".

كان المتوقع أن يبادروا إلى تنفيذ الأمر بعد أن تبيّن لهم الرشد من الغيّ، لكنّهم ذهبوا يسألون عن صفات البقرة تكلُّفًا، فقالوا: "ادْعُ": صيغة افعل: للتوسل بدعائه، "مَا": استفهام من صيغ العموم، "بَقَرَةٌ": نكرة مقيدة بالصفات: "لَا فَارِضٌ"، "وَلَا بِكْرٌ"، "عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ".

قال الزمخشريّ: "كأنها سميت فارضًا؛ لأنها فرضت سنها أي قطعتها، وبلغت آخرها. والبكر: الفتية، والعوان النَّصَف، فإن قلت: (بين) يقتضي شيئين فصاعدًا، فمن أين جاز دخوله على (ذلك)؟ قلت: لأنه في معنى شيئين حيث وقع مشارًا به إلى ما ذكر من الفارض والبكر، فإن قلت: كيف جاز أن يشار به إلى مؤنثين، وإنما هو للإشارة إلى واحد مذكر؟ قلت: جاز ذلك على تأويل ما ذكر وما تقدّم"[103]. عَوان صفة مشبّهة من عانت تَعُون عَونا، صارت عوانًا، وهي النَّصَفُ بينَ المسِنَّة والشابَّةِ[104]. أي صارت بين البكر والفارض.

"فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ": الأمر للوجوب، "ما": موصول صلته معهودة، والمقصود بالمأمور به ذبح البقرة. وهذه الجملة تؤكّد الأمر الأول بذبح البقرة، بل هي أصرح في الطلب. ومع ذلك تمادَوا

[103] الزمخشري، الكشاف مرجع سابق، ج1/148-149

[104] انظر: الزَّبيدي، محمّد بن محمّد، تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، بلا تاريخ ج 35/ 432

في التشديد. فشدّد الله عليهم، جزاء وفاقًا.

التفسير الأصوليّ (44):

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[105].

"إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا" مشكلة أنتجها التكلّف والتشدّد. وقد كانوا في سعة من الأمر. ولا عجب، ففي المجتمعات المتعنّتة المعاندة تكثر النفوس التي تجيد صناعةَ المشكلات واختلاق الأزمات (كالقتلة والمتسترين عليهم) والظروفَ التي تعيق المصلحين، وتحول دون إنجاز الحلول (كالمأمورين بذبح البقرة وما كادوا يفعلون ما أمروا به). أما إذا تغلغل الفساد في المجتمع وأصبح "صنّاع القرار" هم صنّاع الأزمات والفتن، وداهنهم فريق عريض من العلماء والمفكّرين، فإن المعالجة تكون أعسر، وتحتاج إلى مصلحين ذوي حنكة وحكمة، وصبر وعزم، ورحمة واسعة؛ حتى يُزيحوا أسباب الفساد والتخلُّف، ويتقدّموا بالمجتمع.

وفي هذه القصّة أنموذج فريد رشيد في حلّ المشكلات بالتدرُّج والتلطُّف بأصحاب الجفاء والغلو والعناد؛ حتى أنجزوا ما أمروا به، فذبحوا البقرة، وأحيا الله تعالى الميّت بقدرته، وكُشِف السترُ عن القتلة، وأُطْفئت الفتنة، فكانت آية بيّنة وعبرة للعالمين.

" قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ"

"ادْعُ" صيغة افعل للتوسُّل، "مَا لَوْنُهَا": الاستفهام للعموم، لون: نكرة مضافة تعمّ، "بَقَرَةٌ": نكرة مقيدة بالصفات التالية: "صَفْرَاءُ" القيد الأول، و"فَاقِعٌ لَوْنُهَا" القيد الثاني، و"تَسُرُّ النَّاظِرِينَ" القيد الثالث، "النَّاظِرِينَ": صفة صريحة مقرونة ب"أل" تعمّ كلّ ناظر.

"قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ"

"ادْعُ" صيغة افعل للتوسّل، "مَا": استفهام عامّ، "الْبَقَرَ": "أل": للاستغراق والعموم، "تَشَابَهَ

[105] سورة البقرة آية (69=73)

عَلَيْنَا" التشابه المشكل ثمرة تنقيرهم وتكلُّفهم، فلم يستطيعوا بعد ذلك تمييز البقرة المرادة.

" قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ".

"بَقَرَةٌ": نكرة مقيّدة بالصفات التالية: "لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ"، ليست بمذللة ولا تثير الأرض بالحراثة "وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ"، الحرث: يعمّ المحروثات، "مُسَلَّمَةٌ" من العيوب "لَا شِيَةَ فِيهَا" شية: مصدرٌ وَشَيْتُ الثوبَ أَشِيْه وَشْياً وشِيَةً، "لا لون فيها يخالف لون جلدها. وأصله من "وشى الثوب"، وهو تحسين عيوبه التي تكون فيه، بضروب مختلفة من ألوان"[106] نكرة في سياق "لا" النافية للجنس نصّ في العموم فلا اختلاط في لونها.

"وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ"

"قَتَلْتُمْ نَفْسًا"، نكرة مطلقة من القيود، مراد بها نفس معينة، فالتنكير للوحدة، وهي موصوفة بوصف مقدر[107] "نفساً محرمة"، "فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا"، "فتدافعتم فيها. من قول القائل: درأت هذا الأمر عَنّي"[108]، فتركوا ما يجب عليهم من التعاون في البحث عن المجرم، وتدافعوا التهمة؛ لتضيع الحقوق وتُسجَّل الجريمة باسم مجهولٍ! أو يُرمى بها بريء، فيتضاعف الفساد.

"وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ" ما موصولة تعمّ كلّ ما كتموه من شأن القتل.

"فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" "اضْرِبُوهُ": الأمر للوجوب، وضمير المفعول به لمذكر غائب، وفي العدول عن ضمير النفس المؤنثة وقاية من اللبس بضمير البقرة، وإعلام بأن المقتول ذكر، "بِبَعْضِهَا": بعض نكرة مضافة تعمّ كلّ أبعاض البقرة المذبوحة، "الْمَوْتَى": "أل" للاستغراق والعموم، وفيها بيان قدرة الله تعالى على إحياء الموتى بضرب جثة قتيل ببعض بقرة ميّتة! فبغيره من الأسباب أهون، وكلٌ هيّن عليه. قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[109]، "آيَاتِهِ": عموم

---

[106] الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج2/ 215

[107] أبو السعود، الإرشاد، مرجع سابق، ج145/1

[108] الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج2/ 224

[109] سورة لقمان 28

معهـود (عمـوم عـرفيّ)، "لَعَلَّكُـمْ تَعْقِلُـونَ" للتعليـل، وفيـه تعـريض بقلـة عقلهـم؛ وإشـارة إلى أن مسلكهم في معالجة المشكلة والجريمة أشبه بمسلك من لا يعقلون.

لكـلّ مشـكلة حـلّ عنـد مـن يعقلـون، فـإذا أسـأت، فأحسـن، وإذا أذنبـت فتـب، وإذا أخطـأت، فصحّح، وإذا أفسدت، فأصلح.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تعملونَ﴾[110].

تعالج الآية ظاهرة من ظواهر الفساد في الأرض، وأزمة من أزمات الانحراف وتبديل نعمة الله كفرًا، فتَشُقّ لنا صدور القوم؛ لترينا صورة موحشة لما ران على تلك القلوب من أدران الذنوب! ثمّ تستأنف فتضرب لها مثلًا بالحجارة! ثمّ تكرّ مَرّة أخرى؛ فتغوص في أعماق الحقائق؛ لتعرض علينا بعض وظائف الحجارة في مشهد بديع خلّاب يأسر الألباب: حجارة تتفجّر منها الأنهار، وحجارة تشقّق، فيخرج منها الماء، وحجارة تهبط من خشية الله تعالى. فتبدأ بذكر الصنف الأظهر أثرًا ونفعًا، وتختم بالصنف الأخفى سلوكًا والأرفع وظيفة وعبرة. فما أروع صورة تلك الحجارة، وما أبشع وأشنع القلوب القاسية الخاوية شُعَبُها من لطائف الإيمان، ومعارف الوحي!

"ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً".

"ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ" العطف بحرف التراخي والمهلة: "ثمّ" يدلّ على أن ثمة تراخٍ وتطاول في الأمد الممتد من بدء ظهور الآيات على يد موسى عليه السلام؛ حتى إحياء القتيل، ويجوز أن تكون (ثم) لتفاوت مرتبة ما بعدها عما قبلها، قال البقاعيّ: "ولما كان حصول المعصية منهم بعد رؤية هذه الخارقة مستبعد التصور فضلاً عن الوقوع أشار إليه بقوله ثُمَّ قَسَتْ"[111]. وقد قال الله تعالى مخاطبًا بني إسرائيل: "وَيُرِيكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"، فقد أراهم الله تعالى آيات كثيرة، ورؤية الآيات تمحو ران الغفلة عن القلوب، وتذهب أدران الريب

---

[110] سورة البقرة آية (74)

[111] انظر: البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج479/1

عـن العقـول، وتجلـب الطمأنينـة واليقـين واللـين والخشـوع، وتوجـب الشـكر، لكـن بـني إسـرائيل أعرضوا، فلم ينتفعوا!

"قَسَـتْ": "قسـا": جفـا وغلُـظ وصـلُب. ومنـه: قسـا قلبـه يقسـو قسـوا وقسـوة وقسـاوة وقَسـاء"[112]، "وصـفة القلـوب بالقسـوة والغلـظ مثـل لنبوّهـا عـن الاعتبـار وأنّ المـواعظ لا تـؤثر فيهـا. ولفـظ: "ذلِـكَ" إشـارة إلى إحيـاء القتيـل، أو إلى جميـع مـا تقـدّم مـن الآيات المعـدودة"[113]، فالآيـة تـدلّ علـى أن حـال قلـوبهم بعـد رؤيـة الآيات ازداد سـوء وفسـادًا، ولفـظ: "قُلُـوبُكُمْ": نكـرة مضافة تعمّ، "كَالْحِجَارَةِ" "أل" لتعريف الجنس.

"وَإِنَّ مِـنَ الْحِجَـارَةِ لَمَـا يَتَفَجَّـرُ مِنْـهُ الْأَنْهَـارُ": "مِـنَ الْحِجَـارَةِ"، "مِـن" للتبعـيض، و"أل" في الحجـارة للاسـتغراق، و"مـا": موصـول يعـمّ، و"الأنهـار": "أل": للعهـد أو للحقيقـة، وقـد بـدأ بـذكر هـذا الصـنف الـذي هـو أظهـر أثـرًا، وقـد رأوه بأعينهم، ونفعُـه في الحيـاة لا يخفـى عليهم. هـذا مـن حيـث الظهـور والخفـاء، وأمـا مـن حيـث المعالجـة والعمـل فـإن هـذا الصـنف أقـلّ معالجـة؛ لأن الأنهـار تتفجُّـر بنفسـها مـن الحجـارة، فالحجـارة تشـبه الوعـاء والخـزّان الـذي يتـدفق منـه المـاء بـلا معالجة ولا جهد.

"وَإِنَّ مِنْهَـا لَمَـا يَشَّـقَّقُ فَيَخْـرُجُ مِنْـهُ الْمَـاءُ" "لَمَـا" مـا اسـم موصـول للعمـوم، "الْمَـاءُ" "أل" للحقيقـة (لتعريـف الجـنس)، وهـذا الصـنف مـن الحجـارة أقـلّ أثـرًا وظهـورًا مـن السـابق، ولكنّـه مـن حيـث العمـل والمعالجـة أكثـر وأشـدّ، فقـد نُسـب إلى هـذا الصـنف التشـقُّق بخـلاف الصـنف الأول، فـإن الماء يتفجّر منه تفجُّرًا! والحجارة في الحالين قارّة في مكانها لا تغادره، وهي أوعية خازنة للماء.

"وَإِنَّ مِنْهَـا لَمَـا يَهْـبِطُ مِـنْ خَشْـيَةِ اللَّهِ" "لَمَـا": مـا اسـم موصـول للعمـوم، " مِـنْ خَشْـيَةِ اللَّهِ" مِـن للسـببية، أي بسـبب خشـيتها اللهَ تعـالى، وهـذا الصـنف الثالـث مـن الحجـارة اختصّـه الله تعـالى بالمعرفـة الكريمـة بالله تعـالى، والعبـادة العظيمـة وهـي الهبـوط مـن خشـية الله تعـالى، وهـذه الوظيفـة أخفـى ممـا سـبق ذكـره، ولـولا ورودهـا عـن الله تعـالى، مـا علمناهـا، ولكنّهـا مـع خفائهـا أعظـم وأشـرف قـدرًا، فهـي تخشـى الله تعـالى، وتهـبط مـن خشـيته، فتـنحط وتهـوي إلى الأسـفل كمـا يخـرّ السـاجد! بخـلاف الصـنفين الأولـين اللـذين لا يبرحـان مكانهمـا! وفي ذكـر خشـية الحجـارة لله تعـالى تعـريض عـريض بجهلهـم وجفـائهم وقسـوة قلـوبهم. وقـد حـاول بعـض المعاصـرين ربـط الآيـة

[112] الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج262/2 بتصرّف.
[113] الزمخشري، الكشاف مرجع سابق، ج1/ 155 بتصرّف.

بالعلوم الحديثة؛ لإثبات سبقٍ علميّ، وهذا الأمر يحتاج إلى تثبّت. وفيما أنبأنا به الله من أحوال الحجارة موعظة بليغة وحكمة بالغة وعلم عزيز.

"وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تعملونَ"، "وَمَا اللَّهُ": ما نافية، "عَمَّا تعملونَ" "ما": موصولة تعمّ، ويجوز أن تكون مصدرية: عن عملكم، والمصدر المنسبك يعمّ. وفي قوله تعالى: "وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تعملونَ" تخويف ووعيد، وقد أعرضت الآية عن بيان ما يعملونه من الخبائث والذنوب، فلا تقسو القلوب إلا إذا تكاثرت عليها الذنوب! ولا تزول قسوتها إلا بتطهيرها بماء الخشية والتوبة النصوح.

وها هو داء القسوة يغزو قلوب المسلمين، نراه في هجر القرآن، وترك السُّنة، وجور الحاكم، وزيغ العالم، وغشّ المؤتمن، نراه في الشحّ المطاع، والهوى المتبع، وتنازع الصالحين، وتخوين الأمناء، وتقديم السفهاء، وتسلّط الأعداء، واستنزاف الثروات، واستلاب السيادة. ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[114].

إن من جلائل المعاني في القرآن الكريم البراءةَ من اليهود، والتحذير منهم، وقد قرن الله تعالى بينهم وبين المنافقين كثيرًا؛ للوقاية من شرورهم وخبثهم، بل قطعَ الطمعَ في رشدهم وصلاحهم صيانةً للمؤمنين من وضع جهودهم في غير موضعها، وسدًّا لذرائع المنافقين في مواصلة إخوانهم اليهود.

فقد أثبتت الأيام أن اليهود لا مطمع في إيمانهم لنا! وما زال اليهود منذ نزول هذه الآية حتى يومنا هذا أشدّ الناس عداوة للمسلمين، وأقلهم تسامحًا مع الإسلام، وما زالوا يحملون لواء تحريف كلام الله تعالى، وفي حركة الاستشراق الغربيّ والإسرائيليّ دليل قاطع على هذا الأمر. وهاتان حقيقتان عظيمتان قطعيّتان أشبه بالمعجزات، وهي من دلائل صدق النبوّة.

يجيء هذا الانتقال المدهش بعد خمس وثلاثين آية خاطب الله تعالى بها بني إسرائيل، دعاهم فيها إلى الهدى، وبثّ أخبارهم؛ لتكون لمن بعدهم عبرة، ثمّ جاء التنصيص على عاقبة الإعراض عن عقل آيات الله تعالى، ألا وهي القسوة التي لازمت قلوبهم، فحجبت نور الوحي عنها، وهوّنت عليهم الكفر والفسوق والعصيان! فقد حملتهم قسوة قلوبهم على تحريف كلام الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾[115].

تبدأ الآية بالتفاتة جليلة رافعة واضعة، زاخرة زاجرة؛ رافعة لشأن أمّة الإسلام، واضعة لمن عاندها وعاداها، زاخرة بالرعاية والعناية بالدعاة الأبرار، زاجرة عن الطمع في قساة القلوب، نابذة للقساة إلى درْك المهملات المذموم، وهذا إعلان قاطع للطمع في مشاركة بني إسرائيل في حمل الرسالة الخاتمة وتبليغيها. فالآية تطوي سجلّ الأمل في الأمة التي

---

[114] سورة البقرة آية (75)

[115] سورة المائدة آية (13)

تناقلت ميراث النبوة من عهد إبراهيم عليه السلام؛ لأنها لم تعد تحمل من صلاح الفطرة ما يؤهلها للاصطفاء والاختصاص.

وهنا يعرض تساؤل: إن كان القوم بهذا السوء، فلمَ قصّ الله تعالى علينا كلّ تلك الأنباء؟ الجواب: ثمّة مقاصد كثيرة، منها:

الدلالة على صحّة نبوّة محمّد عليه الصلاة والسلام، وبسط الحجة على بني إسرائيل، وتعديد نعم الله تعالى عليهم وبيان قلّة شكرهم، وكثرة كفرهم؛ لتحذير الناس مما حلّ ببني إسرائيل من العقوبات، فسنن الله تعالى لا تبديل لها. كما أنها كشفت عن طبيعة بني إسرائيل في العناد والشقاق بسبب قسوة قلوبهم وضعف عقولهم[116].

"أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ" "أَفَتَطْمَعُونَ" الهمزة للاستفهام الإنكاري، فالاستفهام بمعنى النهي، تقديره: لا تطمعوا أن يؤمنوا لكم... قال الطبريّ: "أفترجون يا معشر المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم، والمصدقين ما جاءكم به من عند الله، أن يؤمن لكم يهود بني إسرائيل؟"[117].

"وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ"

"وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ" الواو للحال، "فريق": نكرة مطلقة، وهو "جمع، كالطائفة، لا واحد له من لفظه. وهو فعيل من التفرق"[118]. و"كَلَامَ اللَّهِ": لفظ كلام: نكرة مضافة تعمّ كلام الله المنزّل على الرسل عليهم السلام، فهي من العامّ المراد به الخصوص أي: خصوص القرآن الكريم.

---

[116] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج559/3

[117] الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج244/2.

[118] الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج244/2

"ثُمَّ يُحَرِّفُونَـهُ مِـنْ بَعْـدِ مَـا عَقَلُـوهُ وَهُـمْ يَعْلَمُـونَ" "يُحَرِّفُونَـهُ": التحريـفُ: الإمالـة والتحويـلُ، و"ثم" للتراخـي: إمَّـا في الزمـانِ أو الرتبـةِ"[119]، "مَـا عَقَلُـوهُ" مـا مصـدريّة أي: مـن بعـد عقلهـم مـا يسـمعونه مـن القـرآن الكـريم يحرفـون آيات الله تعـالى، ويبـدلونها بأهـوائهم، ومثـل ذلـك لا يقـدر عليـه إلا علمـاء السـوء مـنهم. ويلحـق بهـم مـن كـان علـى شـاكلتهم مـن علمـاء السـوء، وقـد درج علـى هـذا المسـلك كثـيرٌ مـن المستشـرقين الغـربيين (وكثـيرٌ مـنهم مـن اليهـود)، وتـبعهم المسـتغربون مـن أبنـاء جلدتنا.

[119] السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج441/1

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[120].

يقدّم لنا القرآن الكريم وسائلَ الوقاية من المشكلات الجسام قبل حلولها، ويهدينا بعد حصولها إلى أقوم حلولها، ولو ذهبتَ تحصي مقادير ما يخسره الناس بتركهم هدى الله تعالى واتباعهم سنن المغضوب عليهم والضّالّين، لتعسّر ذلك عليك أو تعذّر!

وهذه الآية المباركة تكشف لنا سببًا آخر من الأسباب الحائلة دون إيمان اليهود ذوي الفطرة الملوّثة ألا وهو النفاقُ، وهاتان الظاهرتان: النفاق وتحريفهم كلام الله تعالى لا مطمع معهما في صلاح يهود!

ومن تتبع ما ورد في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، وشيئًا ممّا كُتِب عن مسالك اليهود في الصدّ عن الإسلام، لوجد أن اليهود هم حملة لواء الشيطان في تحريف كلام الله تعالى حتى عصرنا هذا، ودورهم في حركة الاستشراق الغربيّ المعادي للإسلام دليل قاطع على هذا الأمر، وتحريفهم لحقائق الإسلام، وتزوير تاريخه، وتشويه ترجمات القرآن الكريم، وتوظيفهم لوسائل الإعلام؛ لبث برامجهم في الحرب على الإسلام وتأجيج الخوف من الإسلام (إسلام–فوبيا) كثير لا يخفى.

وأما مسلك النفاق، فاليهود أئمته وشياطينه، إليهم تهوي أفئدة المنافقين في كلّ عصرٍ، ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[121]. وقد برز دورهم منذ ظهور حركة عبد الله بن أبيّ؛ أفتطمعون أن يغيّر اليهودُ طبيعتهم، فيصالحوكم ويناصحوكم! هيهات هيهات!

وما كان علوهم في الأرض بقوّة فاقوا بها غيرهم، كلّا، فإن حبال اليهود أضعف من أن تجرّ كلّ هذه العربات المشحونة بالكنوز والمستضعفين والمستنزفين! لكنّه المكر الكُبّار مكر

---

[120] سورة البقرة آية (76-77)

[121] سورة البقرة آية (14)

الليل والنهار في توظيف حبال الناس وفي مقدمتها حبال النصارى!

وأما هم في أنفسهم فلا نصر لهم، ولا يَسْلمون من الذلة إلا إذا تلبّسوا بعهد من الله، أي: ذمّة الإسلام، أو إذا استنصروا بقوم أولي بأس شديد[122]، ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾[123].

"وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا"، "إذا" اسم شرط من صيغ العموم، ويكون لما يقع عادة ولا يتخلف، ففيه دلالة على أن هذا النفاق ديدنهم، "وَإِذَا لَقُوا": اسم الشرط والفعل في سياق الشرط من صيغ العموم، "الَّذِينَ آَمَنُوا": الموصول يعمّ كلّ مؤمن. "وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ": اسم الشرط "إذا"، والفعل في سياق "خلا"، والنكرة المضافة "بعضهم"، والنكرة في سياق الشرط "بعض" كلُّها من صيغ العموم،"فأخبر الله عز وجل أنهم تخلَّقوا بأخلاق المنافقين، وسلكوا منهاجهم"[124]. "قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ"، "أَتُحَدِّثُونَهُمْ" الاستفهام للإنكار والتوبيخ، "بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ": ما: موصول يعمّ كلّ ما فتح الله عليهم، لكنّه عامّ مراد به خصوص العلم بصدق رسالة محمّد عليه الصلاة والسلام، وما في معناه، أي: أتحدثون المؤمنين بأن دينهم حقّ، ورسولهم صادق، وأنه مذكور في كتبكم، وأنكم مؤمنون به؟ الفتح: النصر والحكم والقضاء، "لِيُحَاجُّوكُمْ" اللام للتعليل، والمعنى: أتحدثونهم بما حكم الله به عليكم، وقضاه فيكم؟ ومن حُكْمه جل ثناؤه عليهم ما أخذ به ميثاقهم من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به في التوراة. ومن قضائه فيهم أن جعل منهم القردة والخنازير، وغير ذلك من أحكامه وقضائه فيهم. وكل ذلك كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين به، حجةً على المكذبين من اليهود[125].

"لِيُحَاجُّوكُمْ" اللام للتعليل؛ ليقيموا الحجّة عليكم بما حدثتموهم به، "عِنْدَ رَبِّكُمْ": يحتمل أن يكون: ليقيموا الحجّة عليكم وفق كتاب ربّكم (التوراة)، ويجوز أن يكون: ليقيموا الحجّة عليكم عند لقاء الله تعالى في الدار الآخرة على ظاهره، "أَفَلَا تَعْقِلُونَ": الاستفهام للتوبيخ، والفعل في سياق النفي للعموم. وما أعجب هذا! إنه توبيخ أشدّ سفهًا؛ لأن مبناه على

---

[122] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج56/4

[123] سورة آل عمران آية (112)

[124] الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج2/ 249

[125] انظر: الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج2/ 254

الجهالة بقدر الله تعالى!

وقد عقّب الله تعالى على سفَههم هذا بقوله:

"أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ"، الاستفهام للتقرير والتوبيخ، "ما": اسم موصول يعمّ كلّ مَا يُسِرُّونَه وَمَا يُعْلِنُونَه. وفي هذا التعقيب وعيد وتهديد لكلّ مستخْفٍ في لباس النفاق، ومستخِفٍّ بحدود الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾[126].

ظاهرة تتجدّد صورها في كل عصر، فما أكثر الأمّيّين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانيّ! إنهم أدعياء يتقوَّلون على الله تعالى، ويتبعون الظنّ وما تهوى الأنفس!

وما أكثر أدعياء الفكر والفتوى الذين يحترفون الافتراء وتحريف كلام الله تعالى، وهم يعلمون؛ ليشتروا به ثمنًا قليلًا! إنها السُّنن!

"وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ"، "وَمِنْهُمْ": "أي: ومن أهل الكتاب، والأميون جمع أميّ، وهو: الرجل الذي لا يحسن الكتابة، وهو ظاهر في قوله تعالى: "لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ" أي: لا يدرون ما فيه"[127]. والأماني جمع أمنية، "والاشتقاق من منّى إذا قدّر؛ لأن المتمنّي يقدّر في نفسه، ويحزر ما يتمنّاه، وكذلك المختلق والقارئ يقدِّر أن كلمة كذا بعد كذا"[128]، قال الطبريّ: "التمنّي في هذا الموضع، هو تخلُّق الكذب وتخرُّصه وافتعاله. يقال منه: "تمنيت كذا"، إذا افتعلته وتخرصته"[129].

وقد ورد التمنّي بمعنى القراءة، "وهذا النوع من التمنّي قد برز فيه المسلمون؛ حتى سبقوا من قبلهم، فقد أمسَوا أكثر الأمم تلاوة لكتابهم، وأقلَّهم فهمًا له واهتداء به"[130]. ولفظ "أمانيّ" جامع للدلالة على استحالة ما يطلبونه من المغفرة والقبول بتخرُّصهم وقراءتهم التي لا تتجاوز حناجرهم.

"فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا

---

[126] سورة البقرة آية (78-79)

[127] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج310/1 بتصرّف.

[128] الزمخشري، الكشاف مرجع سابق، ج157/1

[129] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج262/2

[130] رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، مرجع سابق، ج298/1

فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ".

"فَوَيْلٌ": دعاء عليهم بالهلاك، "لِلَّذِينَ": الموصول عامّ، يَكْتُبُونَ "الْكِتَابَ": المعهود، "بِأَيْدِيهِمْ" مفهومه لا بأمر الله تعالى، ويحتمل أن يكون شبه الجملةِ مؤكّدًا لا مؤسسًا ولا مفهوم له حينئذ، والتوكيد معنى يكتبون فالكتب معلوم أنه بالأيدي. "لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا" اللام للتعليل، وبئس المقصدُ العليل الثمنُ القليل. "مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ" "ما" في الموضعين اسم موصول يعمّ. قال محمّد رشيد رضا -ناقلًا عن شيخه- "من شاء أن يرى نسخة مما كان عليه أولئك اليهود، فلينظر فيما بين يديه، فإنه يراها واضحة جلية"[131].

[131] رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، مرجع سابق، ج299/1

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[132].

هذه فرية عظيمة تهدم مقاصد الجزاء من ترغيب وترهيب، وتُضلّ أهلها، فتهوّن عليهم عقاب الله تعالى، وتغريهم بمقارفة الذنوب. ويترتّب على هذه الفرية فساد عظيم في الدنيا، وعذاب أليم في الآخرة.

فانظر أيّ مبلغ بلغ سفَهُهم؛ حتى غَرُّوا أنفسهم، وأغروها باجتراح ما يورد النار! وما أكثر الأمانيَّ الكاذبة التي يختلقها المغضوب عليهم والضالّون ومن شابههم من المضلّين؛ ليُزلقوا بها المغفلين، ويكظموا بها الصيحات المجلجلة المنبعثة من أعماق الفطرة، وقد تمادى اليهود والنصارى في ذلك، ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾[133].

لقد تسبّبت هذه الفرية وأمثالها في مشكلات لا حصر لها، وأزمات فكرية، ونفسيّة، وسلوكيّة في بقاع الأرض كلّها.

وقد نقض القرآنُ الكريم هذه الفرية الخبيثة وأقام الميزان الحقّ بما أورده في الآيات الثلاث، فأبان أن سنّة الجزاء جارية وفق موازين القسط، والعدل، فمن أساء وأحاطت به خطيئته، هوى في نار جهنّم خالدًا فيها، ومن أحسنَ وأصلح أدخله الله تعالى جنّات النعيم المقيم.

ولم يَسْلمِ الإسلام من مثل هذا الافتراء، فما أكثر دعاةَ الضلال والزَّيغ الصادّين عن الهدى اتكالًا على ما يختلقه المبطلون من مثل هذا الأَمَانِيّ! كالاتكال على النسب أو شفاعة الشافعين.

"وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً"، قالوا هذا افتراء على الله تعالى، "لَنْ تَمَسَّنَا" الفعل في سياق النفي يعمّ كلّ مَسّ، "النار": هي النار المعهودة التي يخوّف الله بها عباده، "أَيَّامًا

[132] سورة البقرة الآيات (80-82)

[133] سورة البقرة آية (111)

مَعْدُودَةً" أيام نكرة مقيّدة بالصِّفة "معدودة" لقلّتها.

"قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ"، "قُلْ": أمر للوجوب، "أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ" الاستفهام للإنكار والتوبيخ، فهو ينكر عليهم ما ادّعوه، ويوبخهم عليه، "عَهْدًا": نكرة مطلقة، وهو مقيّد بالسياق أي عهدًا بما ذكرتم، "فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ": الفعل في سياق النفي يعمّ، فلن يخلف "عَهْدَهُ" الذي عقده لكم، "أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ": "ما" موصول يعمّ، والفعل في سياق النفي يعمّ.

ثمّ بيّن الله تعالى قانون العقاب العامّ، وسنة من سُننه المطردة التي لا تتبدّل في مجازاة من أساء وأحاطت به خطيئته، فقال: "بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ":

"بَلَى" حرف جواب ينقض دعوى اليهود الباطلة، ويثبت خلافها، والتقدير: بلى ستمسّكم النار، وتخلدون فيها؛ لشرككم بالله تعالى وكفركم برسوله عليه الصلاة والسلام، ثمّ أوضح الله تعالى سنته في عقاب المجرمين: "مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً": اسم شرط يعمّ، "سيئة": نكرة في سياق الشرط تعمّ، وهي من العامّ المراد به الخصوص، فالمراد بالسيئة هنا الكفر الأكبر، "خطيئته": نكرة مضافة تعمّ كلّ الخطايا، "أصحابُ النار": النكرة مضافة تعمّ، والنار هي المعهودة. هذا هو منطوق الآية، ومفهوم المخالفة أن من لم يكن كذلك لم يصبه ما يصيب الكافرين من العذاب.

ثمّ ذكر الله تعالى سنّة الجزاء الحسن لمن آمن وأصلح، فقال ربُّنا عزّ وجلّ ترغيبًا وتشويقًا: "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" الذين": موصول يعمّ، "الصَّالِحَاتِ" "أل" للعموم العرفيّ، و"أصحاب": نكرة مضافة تعمّ، الجنة هي دار الخلود، وفي ذكر هذا الجزاء الكريم العظيم ترغيبٌ في دخول الإسلام، وتبشير للمسلمين، وتعجيل لهم بالمسرّة.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾[134].

في هذه الآية بيان الداء والداء، وذكر القلة المهتدية، والكثرة المعرضة، وفيها تشخيص للأزمة الممتدة التي يعاني منها بنو إسرائيل أزمة نقض الميثاق والإعراض عن الحقّ مع أن فيه صلاحهم.

وكأن حوادث الماضي تتجدّد في هذا العصر، فها هم اليهود المخاطبون بالقرآن الكريم يقتفون شِرار أسلافهم الذين تولّوا عن هذه الشعائر الكريمة وهم معرضون، وهي شعائر موافقة للحقّ الذي جاءهم به محمّد عليه الصلاة والسلام، وقد تولّوا عن الإسلام إلا قليلًا منهم، فوقعوا فيما وقع فيه مَنْ ظلم نفسه من آبائهم الأولين.

"وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ": "ميثاق"، و"بني" نكرتان مضافتان تعمّان، "لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ": النفي بمعنى النهي أي لا تعبدوا أحدًا غير الله، والأسلوب الخبريّ هنا "أبلغ من صريح الأمر والنهي"[135]؛ لأن طلب الفعل نُزِّل منزلة ما تُلُقِّي بالامتثال، فهو واقع حاضر يخبر عنه. والفعل "تعبدون" في سياق "لا" النافية يعمّ كلّ أنواع العبادات.

"وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ".

وردت هذه الأصناف مرتبة حسب الأولويّة، فأحقّ الناس بالإحسان الوالدان، "وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا" الوالدان يعمّ كلّ أب وأمّ، "والباءُ ترادِفُ إلى"[136]، وتقديم ذكرهما على "إحسانا" لزيادة الاعتناء والاهتمام، "وأصله وإحسانًا بالوالدين، والمصدر بدلٌ من فعله، والتقدير: وأحسنوا بالوالدين إحسانًا. ولا يريبكم أنه معمول مصدر، وهو لا يتقدم على عامله على مذهب البصريين؛ لأن تلك دعوى واهية دعاهم إليها أن المصدر في معنى أن والفعل، فهو في

---

[134] سورة البقرة آية (83)

[135] الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج1/ 159

[136] السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج1/ 461

قوة الصلة، ومعمول الصلة لا يتقدم عليها مع أن "أن والفعل" هي التي تكون في معنى المصدر لا العكس"[137]. ويدخل في هذا الطلب كلّ إحسان واجب ومندوب.

-"ذي القربى": القربى تعمّ كلّ ذي قربى، والقربى مصدر، كالرُّجعى بمعنى القرابة، وهم من يصلون إليك من جهة والديك، وهم درجات متفاوتة، فيقدّم الأقرب فالأقرب عند تزاحم الحقوق والعجز عن الجمع.

"وَالْيَتَامَى": "أل" للاستغراق، واليتيم مَن فقد أباه وهو دون الاحتلام، فلا يُتْمَ بعد احتلام كما ورد عن عَلِيّ رضي الله عنه أنه قال: حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- "لاَ يُتْمَ بَعْدَ احْتِلاَمٍ"[138]. وقدّم اليتامى على المساكين؛ لأنهم أضعف، وحاجتهم إلى الرعاية أعظم.

"وَالْمَسَاكِينِ" "أل" للاستغراق، والمسكين مِفعيل من السُّكون كأن الفاقة أسكنته[139]، وسلبته القدرة على الحركة والسعي في قضاء حاجاته.

"وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا" قولوا فعل أمر، ويدخل في هذا الطلب قول الواجبات والمندوبات، فيشمل كلّ ما فيه خيرٌ ونفع وصلاح عاجل وآجل، أو بعبارة أحرى: كلّ قول جالب للخير والنفع، دافع للشرّ والضرّ. و"الناس": عامّ، وفعل الأمر يدلّ على الإطلاق، وقد قُيِّد بلفظ: "حُسْنًا".

"وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ" الأمر للوجوب، "الصلاة" حقيقة شرعيّة، وهي عمود الدين، و"أل" للعموم. "وَآتُوا الزَّكَاةَ" الأمر للوجوب، و"الزكاة": حقيقة شرعيّة، و"أل" لاستغراق جميع أنواع الزكاة. وقد نصّ على هاتين العبادتين؛ لعظيم أثرهما في صلاح العباد عاجلًا وآجلًا.

"ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ"، "تَوَلَّيْتُمْ" الضمير للعموم؛ لأنه يعمّ كلّ المخاطبين منهم، ثمّ استثنى فئة قليلة استقامت ووفّت، وفي استثنائهم تعريض بالأكثريّة، وقيّد الفعل "تولّى" بالحال توكيدًا لإدبارهم عن الحقّ؛ لأن الإعراض يقوي معنى التولّي ويعضده.

---

[137] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1/ 583

[138] رواه أبو داوود، ح 2875، وقال الشيخ الألباني في صحيح الجامع: (صحيح) انظر حديث رقم: 7609

[139] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج2/ 15

ولقد خاطب الله تعالى الرسولَ محمّدًا عليه الصلاة والسلام، والمسلمين، والناسَ أجمعين ببعض الأحكام الواردة في ميثاق بني إسرائيل: عبادة الله تعالى وحده، وبرّ الوالدين، والإحسان إلى الناس قولًا وفعلًا، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وهي محاسن ومكارم لا صلاح للإنسان في الحياة الدنيا، ولا فوز له في الآخرة إلا بها. وهذه الأحكام الجامعة كلّها قد أقرّها الإسلام، ودعا إليها البشريّة كلّها، فكأنّ سِلْكَ الميثاق يمتدّ؛ لينتظم الأولين والآخرين من غير تفريقٍ بينهم، فيشمل عباد الله تعالى جميعًا، فيتسق ما ورد في هذه الآية بما سبق بيانه من تقريرٍ لسنّة الجزاء العامّة! فالجزاء مرتبط بالوفاء بما تضمّنه الميثاق من شعائر الله تعالى لا بقوميّة ولا نسبٍ، فمَن أحسن، سَعِد بإحسانه، ومن أعرض، باء بخسرانه!

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾[140].

ما المشكلة التي تعالجها الآية؟

هذه الآية للوقاية، فهي تقي العباد من مفاسد عظيمة، وأزمة إنسانية أليمة، إنها تمنع من الوقوع في فتنة القتل وإخراج الناس من ديارهم بغير حقّ (التهجير القسريّ)، وهما سببان لأزمة عالمية، والمسلمون في هذا العصر أكثر الناس اصطلاء بهذا العذاب، وما زال اليهود قادةَ المخطّطين والمنفذين لهذه الجريمة؛ لأنهم مَرَدوا على هذا الصنف من الفساد، وقد استجاب لهم من كان على سننهم وشاكلتهم من المفسدين في الأرض، فتظاهروا على المستضعفين بالإثم والعدوان.

"وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ"

"وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ": "أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ" آخذُ الميثاق هو الله تعالى، وجاء بضمير المعظِّم نفسَه، وهو صاحب العظمة والكبرياء، وفي هذا أبلغ ترغيب في الوفاء وترهيب من النقض، و"مِيثَاقَكُمْ": نكرة مضافة تعمّ، وقد بيّنه بقوله: "لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ"، و"لَا تَسْفِكُونَ" النفي بمعنى النهي، وهو للتحريم، والمقصد منه حفظُ الأنفس، وهو من الضروريات التي لا تستقيم الحياة بفواتها، والفعل في سياق النفي للعموم، فلا سفك دمٍ البتة، **وأما "سفك الدم"، فإنه صَبُّه وإراقته**"[141]. و"دِمَاءَكُمْ"، نكرة مضافة تعمّ.

"وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ": "وَلَا تُخْرِجُونَ": النفي بمعنى النهي، وهو للتحريم، والمقصد منه الاستقرار بمصالحه من حفظ الضروريات والحاجيّات والتحسينات، ودرء التهجير والتشريد

---

[140] سورة البقرة آية (84)

[141] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج300/2

الـذي يطـال فسـادُه كـلَّ جوانـب الحيـاة، وحـال المخـرجين مـن ديارهـم ناطـق بمـا لا تقـدر علـى وصـفه الكلمـات. والفعـل في سـياق النفـي للعمـوم، "أَنْفُسَـكُم" نكـرة مضـافة تعـمّ، وكـذلك "دِيَارِكُمْ".

قـال رضـا: "وقـد أورد النهـي عـن سـفك بعضـهم دمَ بعـض، وإخـراج بعضـهم بعضًـا مـن ديارهـم وأوطـانهم بعبـارة تؤكـد معـنى وحـدة الأمـة، وتحـدث في الـنفس أثـرًا شـريفًا يبعثهـا علـى الامتثال إن كان هناك قلب يشعر، ووجدان يتأثر"[142].

"ثُمَّ أَقْـرَرْتُمْ وَأَنْـتُمْ تَشْـهَدُونَ"، أقـرُّوا جميعًـا بقبـول الميثـاق، وحملـوه علـى بصـيرة، وشـهدوا علـى أنفسهم، فجمعوا بين الإقرار والشهادة، فما أبلغ الحجة وما أوضح المحجّة.

[142] رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، مرجع سابق، ج308/1

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾[143].

تعرض هذه الآية أزمةً مِن أخبث أزمات الانحطاط في القيم الربانيّة والإنسانيّة، فتبيّن أسبابها (نقض الميثاق وتظاهر بعضنا على بعض بالإثم والعدوان)، وتجلّي عاقبة هذه الجريمة من الخزيّ في الدنيا والعذاب الشديد في الآخرة.

ثمّ تجيء الآية الثانية فتكشف حقيقة الأسباب الخفيّة، إنهم قوم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة!

وما أشدّ الغفلة التي حلّت بكثير من المسلمين؛ حتى تشبّهوا بالذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة! فوقعوا فيما وقعوا فيه، لقد أحاطت بكثير منا الخطيئة التي أفضت إلى تفرّق الكلمة، والفشل، وذهاب القوة، وتسلّط الأعداء، وسلب خيراتنا.

وأما العلاج فهو ظاهر، وهو: الوفاء بالميثاق، والكفّ عن التظاهر بالإثم والعدوان، ولا يتأتى ذلك إلا لمن آثرَ نعيم الآخرة، وخاف الوعيد.

"ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ": وأتى بحرف "ثمّ" للإشارة إلى القاع السحيق الذي هوت فيه هذه الفئة الظالمة لنفسها، فانحطوا من رتبة الإقرار بالميثاق إلى حضيض النقض والارتداد على الأعقاب!

"أَنْفُسَكُم" نكرة مضافة تعمّ، فما أبشع الجريمة! وما أشدّ الجهالة والانحطاط! و"دِيَارِكُمْ"، نكرة مضافة تعمّ، و"فَرِيقًا مِنْكُمْ" "فَرِيقًا" نكرة في سياق الإثبات تدلّ على الإطلاق، وقُيّدت بشبه الجملة "منكم"، أي من المؤمنين، وهو في غاية القبح.

[143] سورة البقرة آية (84-86)

"تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ": و"التظاهر" هو والتعاون؛ لتقوية بعضهم ظهر بعض. فهو "تفاعل" من "الظهر"، وذلك بإسناد بعضهم ظهرَه إلى ظهر بعض[144]. "بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ": "أل": فيهما للعموم العرفيّ. والتظاهر بالإثم والعدوان هو سبب هذه الفتنة العظيمة.

"وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ"، أسارى جمع أسير، "تفادوهم" تدفعون الفدية لتحريرهم، وقد وبخّهم على الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه.

"وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ" "إِخْرَاجُهُمْ" نكرة مضافة تعمّ كلّ أنواع الإخراج، "بِبَعْضِ الْكِتَابِ" نكرة مضافة تعمّ،

"ما": اسم استفهام يتضمن معنى النفي يعمّ، ويجوز أن تكون النافية ويكون "جزاء": نكرة في سياق النفي تعمّ، "مَن": موصول يعمّ، "خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا" "والخزي بالكسر ذلّ في النفس طارئ عليها فجأة لإهانة لحقتها أو معرة صدرت منها أو حيلة وغلبة تمشت عليها، وهو اسم لما يحصل من ذلك وفعله من باب سمع بفتح الخاء، والمراد بالخزي ما لحق اليهود بعد تلك الحروب من المذلة بإجلاء النضير عن ديارهم وقتل قريظة وفتح خيبر وما قُدّر لهم من الذل بين الأمم"[145]. "وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ"، "الْعَذَابِ": عام، "وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ" "ما": موصول يعمّ.

"أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ"

هذا هو التعريف الحقيقيّ لهؤلاء المجرمين، إنهم قوم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فبئس ما يشترون.

"الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخرة": الموصول يعمّ، وتعريف المبتدأ والخبر للحصر، "فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ": الفعلان في سياق النفي يعمّان والتقدير: فلا تخفيف عنهم من العذاب، ولا نصرَ لهم، و"الْعَذَابِ": عامّ، وعمومه عرفيّ.

---

[144] انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج300/2

[145] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1/ 591

وقد لحق باليهود ما حذّرهم الله تعالى منه، وهذا العقاب لاحقٌ لا محالةَ بمن سلك مسلكهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾[146].

لماذا يحارب الظالمون مَن يقدِّمون لهم الخير والصلاح ويدعونهم إلى الحقّ والفلاح بلا أجر ولا ضرر ولا عنف ولا تطرُّف؟

ولماذا يفضّل المجرمون من يخونهم ويغشُّهم ويطلب على نفاقه وغشِّه أجرًا؟ بل إنهم مستعدون للانقلاب عليهم، وموالاة أعدائهم.

إن هذه الآية تكشف حقيقة الأزمة التي يعيشها المجرمون، وتفضح مسالكهم في محاربة الحقّ والدعاة إلى الله تعالى.

إن تهمة التطرُّف، والإرهاب، والحرب على المتطرفين والإرهابيين إنما هي ذرائع؛ للصدّ عن دين الله تعالى. ولن يرضوا عن الدعاة؛ حتى يقارفوا محارم الله تعالى، ويبدّلوا دينهم الحقّ، ويتبعوا أهواء الظالمين.

إن الرسل عليهم السلام هم أرحم الناس بالناس، وأكثرُهم بركة ونفعًا للخلق، وألطفهم قيلًا، وأقومهم سبيلًا، يقدِّمون الخير ابتغاء مرضاة الله تعالى، ومع ذلك يُقتلون ويُكذَّبون. وملّة الكفر واحدة، وعداوتهم للحقّ وأهله ممتدّة لا تنقطع.

والعجب ممّن يرفع راية الإسلام ثمّ يصدّق أعداء الحقّ، ويساعدهم في الحرب على الإسلام!

وإن كثيرًا من الأزمات التي تعيشها البشريّة عامّة والمسلمون خاصّة تخرج من أنفاق اليهود المظلمة، ومن شاكلهم.

---

[146] سورة البقرة آية (87-88)

"وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ": الكتاب المعهود وهو التوراة، "وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ": "وَقَفَّيْنَا" "وأردفنا وأتبعنا بعضهم خلف بعض، كما يقفو الرجلُ الرجلَ، إذا سار في أثره من ورائه. وأصله من "القفا"، يقال منه: "قفوت فلانا: إذا صرت خلف قفاه"[147]، و"الرسل: عمومه عرفيّ، "وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ" البينات المعروفة المعهودة، من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير، وغيرها، فهو عامّ مراد به الخصوص، "وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ"، قوّيناه بجبريل، أي: "بالروح المقدّسة، كما تقول: حاتم الجود، ورجل صدق"[148]. "أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ "كُلَّمَا": عامّ، "رسول": يجوز أن يكون للوحدة، والمعنى: أفكلما جاءكم واحد منهم، ويجوز أن تكون النكرة في سياق ما يشبه الشرط تعمّ، والمعنى: أفكلما جاءكم الرسل، " بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ" "ما": موصول يعمّ، والفعل قي سياق النفي يعمّ، و"أنفسكم" نكرة مضافة تعم، "وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ": "قُلُوبُنَا": نكرة مضافة تعمّ، "والغلف بضمٍّ فسكون جمع أغلف وهو الشديد الغلاف مشتق من غَلَفَه إذا جعل له غلافًا وهو الوعاء الحافظ للشيء والساتر له من وصول ما يكره له. وهذا كلام كانوا يقولونه للنبي صلى الله عليه وسلم حين يدعوهم للإسلام، قصدوا به التهكمَ وقطعَ طمعِه في إسلامهم"[149].

سنة الله: "بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ" الباء لسببية، والكفر سبب اللعنة. فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ" الأظهرُ: أنه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ أي: فإيماناً قليلاً يُؤمنون، ما مزيدةٌ للتأكيد[150].

يذكّر الله تعالى بني إسرائيل بحقيقتهم الرديئة الدنيئة التي تقابل النعم بالكفر، والجحود، والفسوق، والعصيان، وفيه تنبيه وتحذير للرسول عليه الصلاة والسلام ولأمته من الطمع في صلاحهم، فلا أمل في استصلاحهم؛ لما جُبلوا عليه من الفساد باطنًا وظاهرًا.

---

147 الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج2/ 318

148 الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج1/ 162

149 ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1/599

150 السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج1/502

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[151].

ما الذي يمكننا استخلاصه من هذه الآية لتحسين أحوالنا وحلّ مشكلاتنا؟

ما المشكلة التي تعالجها هذه الآية؟ وما مظاهرها وأثرها؟

إنّه داء الخُلْف، والنقض، والإعراض، وإني لأعجز عن تخيُّل ما بلغه اليهود من الشقاوة والبغي والسّفَه! كيف فوّتوا بركة السَّبق إلى الحقّ، وهم يعلمون أنها الفرصة الأخيرة، والرسالة الخاتمة؟ ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾[152]. وآثار هذا الخُلفِ والإعراض ما نراه في حياة يهود من الفساد في الأرض والضلال المبين، وأما في الآخرة فعاقبة أمرهم الخريُ والعذاب المقيم.

لقد بلغ هؤلاء اليهود ذروة الضلال والبغي والسَّفَه! انظر أيَّ طغيانٍ وبغيٍ وعتوٍّ يقابل به هؤلاء اليهود فضلَ الله تعالى عليهم! فما أكثر رسلهم عليهم الصلاة والسلام! وما أكثر فساد يهود وطغيانهم! وما أشدّ كفرهم!

وإني لأشدّ عجبًا ممن ذاق طعم الإسلام كيف يقفو هؤلاء، ويركن إليهم وإلى من والاهم.

"وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ": "كِتَابٌ" نكرة قيّدت بالصفتين بعدها، **الصفة الأولى:** كونه "مِنْ عِنْدِ اللَّهِ"، وقد قُدِّم الوصف بشبه الجملة على الوصف بالمفرد "مصدقٌ"؛ لأن كونه من عند الله تعالى أعظم الوصفين، فإن الإضافة إلى لفظ الجلالة ترفع الوصف مقامًا عليًّا، **والوصف الثاني:** "مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ"، "ما" موصول يعمّ كلّ الكتب السابقة.

"وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا" قال الطبريّ: "وكان هؤلاء اليهود – الذين لما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم من الكتب التي أنزلها الله قبل الفرقان، كفروا به –

---

[151] سورة البقرة آية (89)

[152] سورة المدّثّر الآيات (49-51)

يستفتحون بمحمد صلى الله عليه وسلم، ومعنى الاستفتاح: الاستنصار، يستنصرون الله به على مشركي العرب من قبل مبعثه، أي من قبل أن يبعث"[153]، و"عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا": "الذين": موصول يعمّ الكفار الذين يعيشون قربهم (عمومه عرفيّ)، "فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ": "ما": موصول يعمّ كلَّ ما عرفوه: من صفات الرسالة والرسول، ويجوز أن يحمل على ظاهر السياق، وهو الكتاب (القرآن الكريم).

وسلوك اليهود لا يفعله عاقل، فقد كفروا على علم وبصيرة، فاستحقوا اللعنة والطّرد من رحمة الله تعالى. "فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ": "لعنة": نكرة مضافة تعمّ كلّ لعنة، " الكافرين": صفة صريحة محلاة ب "أل": تعمّ، وفيها إيماء وتنبيه على علة اللعن، وهي الكفر.

إنّ النقض والنكثَ شِنشِنةُ يهود، فلا وفاء لهم، ولا عزم، إنما يلهثون خلف أهوائهم، إذ لم يكن تشوّفهم وحرصهم على الرسالة الخاتمة؛ لتحقيق مراد الله تعالى في إصلاح أحوال العباد، ونيل مرضاة الله تعالى، كلّا، بل كانوا حريصين على الاستئثار بالرسالة الخاتمة؛ للتمتع بالعلو في الأرض والفساد. لقد انتزع الله تعالى من يهود ميراث النبوة، وأورثها قومًا آخرين، والله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وقد اختار لها من هو أصلح للعمل بها وتبليغها.

وكلُّ من شاقَّ الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام على علم وبصيرة يصيبه من الخزيّ ما أصاب يهود.

[153] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج2/ 332

قال الله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[154].

ترى لمَ صرَّحت الآية بهذا السبب المتواري خلف تلك الضلوع الخبيثة؟ ألم يكُ كافيًا للاعتبار ما بدا من شرور أعمالهم، وما آلَ إليه حالهم من الفساد؟ لقد حصر أسباب تلك الشرور والمفاسد في شيء واحد، ألا وهو البغي، والبغي هو التَّعدِّي والحسد.

فالبغي هو الذي حملهم على اقتراف كلّ تلك الجرائم، والبغي هو السبب الكامن وراء أكثر الأزمات التي تعاني منها البشريَّة في هذا العصر! ومن تتبّع ما خَلَّفه البغيُ من فساد ودمارٍ في الأرض، أدرك عظمة هذا التنصيص على هذا الداء العُضال الذي يعيث في القلوب فسادًا؛ ليبادر عقلاء الناس إلى علاجه، واتخاذ التدابير القويّة للحيلولة دون انتشاره، وما نراه من تفرُّق وتنازع وتدابر وتقاتل بين المسلمين أنفسهم سببه الأكبر هو البغيُ.

"بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ": بِئْسَ أصله بَئِسَ من البُؤس[155]، وهو اشتداد الحاجة، كما أن نِعْم منقول من قولك نَعِمَ فلانٌ إذا أصابَ نعمةً، فنقلا إلى المدح والذم، فشابها الحروف، فلم يتصرفا[156]. و"ما": فاعل بئس، و"ما" من صيغ العموم، و"أنفسهم": نكرة مضافة تعمّ، "أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ": المصدر المؤول يعمّ، "ما": موصول يعمّ، "بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ": "بَغْيًا" البغيُ هو التعدِّي والحسد[157]، وهذا المصدر هو العلّة، أي كفروا لأجل التعدّي والحسد من "أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ"، والمصدر المؤول يعمّ، "فضله": نكرة مضافة عامّة، "عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ" من: موصول، عباده: نكرة مضافة": كلها تعم. "فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ" غضب: نكرة مقيَّدة بالصفة أي بغضب فوقه غضب. "وَلِلْكَافِرِينَ

---

[154] سورة البقرة آية (90)

[155] انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج2/ 338

[156] انظر: الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، طبعة 1995م، ص73

[157] انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج2/ 342

عَذَابٌ مُهِينٌ": "الكافرين: لفظ عام يوميء إلى العلة.

قال ابن عاشور: "بَغْياً مَفْعُولٌ لِأَجْلِهِ عِلَّةٌ لِقَوْلِهِ: أَنْ يَكْفُرُوا لِأَنَّهُ الْأَقْرَبُ إِلَيْهِ، وَيَجُوزُ كَوْنُهُ عِلَّةً لِاشْتَرَوْا لِأَنَّ الِاشْتِرَاءَ هَنَا صَادِقٌ عَلَى الْكُفْرِ فَإِنَّهُ الْمَخْصُوصُ بِحُكْمِ الذَّمّ وَهُوَ عَيْنُ الْمَذْمُومِ، وَالْبَغْيُ هُنَا مَصْدَرُ بَغَى يَبْغِي إِذَا ظَلَمَ وَأَرَادَ بِهِ هُنَا ظُلْمًا خَاصًّا وَهُوَ الْحَسَدُ وَإِنَّمَا جُعِلَ الْحَسَدُ ظُلْمًا لِأَنَّ الظُّلْمَ هُوَ الْمُعَامَلَةُ بِغَيْرِ حَقٍّ وَالْحَسَدَ تَمَنِّي زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنِ الْمَحْسُودِ وَلَا حَقَّ لِلْحَاسِدِ فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يَنَالُهُ مِنْ زَوَالِهَا نَفْعٌ، وَلَا مِنْ بَقَائِهَا ضُرٌّ".

فائدة:

قال ابن عاشور: "بئسما مركب من "بئس" و "ما" الزائدة. وفي بئس وضدها نعم خلاف في كونهما فعلين أو اسمين والأصح أنهما فعلان، وفي "ما" المتصلة بهما مذاهب أحدها: أنها معرفة تامّة أي: تفسر باسم معرف بلام التعريف وغير محتاجة إلى صلة احترازا عن "ما" الموصولة فقوله: "بئسما" يفسر ببئس الشيء قاله سيبويه والكسائي. والآخر أنها موصولة قاله الفراء والفارسي وهذان هما أوضح الوجوه، فإذا وقعت بعدها ما وحدها كانت ما معرفة تامة نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾[158]. أي: نعم الشيء هي وإن وقعت بعد ما جملة تصلح لأن تكون صلة كانت ما معرفة ناقصة أي موصولة نحو قوله هنا "بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ" و"ما" فاعل "بئس". وقد يذكر بعد بئس ونعم اسم يفيد تعيين المقصود بالذم أو المدح ويسمى في علم العربية المخصوص، وقد لا يذكر لظهوره من المقام أو لتقدم ما يدل عليه فقوله: "أَنْ يَكْفُرُوا" هو المخصوص بالذم والتقدير كفرهم بآيات الله ولك أن تجعله مبتدأ محذوف الخبر أو خبرا محذوف المبتدأ أو بدلا أو بيانا من "ما"، وعليه فقوله تعالى: "اشْتَرَوْا" إما صفة للمعرفة أو صلة للموصولة و "أَنْ يَكْفُرُوا" هو المخصوص بالذم خبر مبتدأ محذوف وذلك على وزان قولك نعم الرجل فلان"[159].

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ

---

[158] سورة البقرة آية (271)

[159] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج599/1

مُؤْمِنِينَ﴾[160].

من خصال اليهود الزَّيَغَان عن المنهج، والرَّوَغَان عن الحق الأبلج، والاعتداء على الأنبياء والمصلحين، وكلما سمعوا دعوة الحقّ ردُّوها بحجج داحضة! فهم شرّ البريّة، ولا يركن إليهم، ولا يتابعهم إلا شرّير هالك.

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آَمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ": إذا شرطية تدلُّ على وقوع فعل الشرط أو كثرة وقوعه، وهذا يعني أن الرسول عليه الصلاة والسلام قائل لهم ذلك، ومقيم عليهم الحجة، وأنهم مجيبون بهذا الجواب؛ لأنهم قد مردوا على سلوك مسلك الفسقة من أجدادهم، فهم على آثارهم يهرعون، "لَهُمْ" أي: لليهود في عهد محمد عليه الصلاة والسلام، "آَمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ": فعل أمر، والأمر للوجوب، "بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ": "ما" موصول: عامّ، والمقصود به خاصّ أي: القرآن الكريم، فجاء جوابهم الزائغ: "قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا" "قالوا: نؤمن"، أي نصدِّق، "بما أنزل علينا"، يعني بالتوراة التي أنزلها الله على موسى. "وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ"، ويجحدون، "بما وراءه"، "ما": موصول، يعني: بما وراء التوراة "وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ"، والقرآن هو "الْحَقُّ" "أل" للكمال، فهو الكامل التامّ، الموافقٌ لما معهم من الأخبار الصادقة، "قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" "قُلْ" فعل أمر، هذا أمر للرسول الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لتفنيد دعواهم، و "فلمَ": ما اسم استفهام عامّ، والاستفهام للتقريع والتشنيع وإبطال الدعوى، أنبياء: نكرة مضافة عامّ مرادٌ به الخصوص، لقوله تعالى: "فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ".

فائدة:

قال محمد رشيد رضا: "قال: إنهم يكفرون بما وراء المنزل إليهم "وهو الحق" أي والحال أنه الحقّ الثابت في نفسه بالدليل حال كونه "مصدقا لما معهم"، فهو مؤيد عندهم بالعقل والنقل، ومن مباحث اللفظ أو البلاغة: أنه جاء بالجملة الحالية في بيان كون ما كفروا به هو الحق؛ لأن الجملة الحالية تدل على تقدم ثبوت مضمونها على حدوث ما جعلت قيدًا له، وما كفروا به كذلك هو الحق من قبل كفرهم، وهذا المعنى للجملة الحالية هو ما حققه الإمام عبد القاهر في

[160] سورة البقرة آية (92)

دلائـل الإعجـاز، ولم يشـر إليـه شـيخنا هنـا؛ لأنـه لم يكـن عنـد تفسـير هـذه الآيات قـد قـرأ دلائـل الإعجـاز، وقولـه: "مصـدقا لمـا معهـم" حـال مفـردة مؤكـدة والأصـل فيهـا المقارنـة لمـا هـي قيـد لـه، وهـو يتضـمن إثبـات كفـرهم بالتـوراة بالتبـع لكفـرهم بالقـرآن المصـدق لهـا، ولـو فيمـا صـدقها فيـه، والكفـر ببعضـه كـالكفر بـه كلـه كمـا تقـدم بيانـه قريبـا. ومـن مباحـث اللفـظ أيضـا: وضـع المضـارع "تقتلـون" موضـع الماضـي "قتلـتم" لمـا سـبق بيانـه في مثـل هـذا التعبـير مـن إرادة استحضـار صـورة هـذا الجـرم الفظيـع مبالغـة في التقريـع، وإغراقـا في التشـنيع. ولمـا كانـت هـذه الصـيغة تـدلّ علـى الحال، فتُوْهِم أن الذين في زمن التنزيل كانوا لا يزالون يقترفون هذه الجريمة"[161].

[161] رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، مرجع سابق، ج317/1

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾[162].

ما الذي يمكننا استخلاصه من هذه الآية لتحسين أحوالنا وحلّ مشكلاتنا؟

هذه الآية تعرض أزمة جسيمة، وجريمة عظيمة اقترفها اليهود، ألا وهي عبادة اليهودِ العجلَ بعد رؤيتهم الآيات البيّنات التي جاء بها موسى صلى الله عليه وسلم، وقد بيّنت الآيةُ السببَ الذي أوردهم تلك المهالك ألا وهو الظلم.

ولا يزال اليهود يتوارثون هذا الإرث الخبيث، قال رضا صاحب المنار رحمه الله تعالى: "فما جرى من بني إسرائيل من المنكرات لم يكن من قذفات المصادفة، وإنما كان عن أخلاق راسخة في الشعب، تبع الآخرون فيها الأولين، إما بالعمل وإما بالإقرار وترك الإنكار. وفاعل الكفر ومجيزه واحد"[163].

لقد بلغ خبث اليهود في عهد الرسالة الخاتمة مبلغًا أعظم مما كان عليه شرار أسلافهم، فقد جمعوا الكذبَ على الله تعالى، والتكذيبَ بالدلائل على صدق القرآن الكريم الواردة في كتابهم، وكذَّبوا بما جاءهم به محمّد صلى الله عليه وسلم من الآيات البيّنات! فأيُّ زيغٍ أُركس فيه هؤلاء الظالمون!

"وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ" تبدأ الآية بحرفي التوكيد: "اللام وقد" دفعًا لجحود اليهود وإنكارهم، و"بِالْبَيِّنَاتِ": عامّ يراد به المعهود لهم من الآيات الواردة قبل عبادتهم العجل كالعصا واليد، "العجل": "أل" للعهد، وقد اقترفوا هذا المنكر العظيم وهم ظالمون. والمسارعون في موالاة اليهود قد وقعوا في خطرٍ عظيم، وسيحيق بهم ما حاق بغيرهم، إن لم يتوبوا.

فيا معاشر المسلمين، لقد جاءكم محمّد صلى الله عليه وسلم بالبينات، فلا تتخذوا اليهود أولياء، فتكونوا مع القوم الظالمين، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[164].

---

[162] سورة البقرة آية (92)

[163] رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، مرجع سابق، ج318/1

[164] سورة المائدة آية (51)

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[165].

إنها لآية عظيمة أن ترى جبلًا فوق رأسك مرفوعًا؛ لتأخذ كتاب الله بقوة! لكنّ القلوب المشربة بالفتنَ لا تؤمن بالآيات مهما عظمت وكثرت، ولا تخضع للحقّ، بل تسلك سبيل المعاندة، والمحادّة لله تعالى.

"وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ": ميثاق: نكرة مضافة لفظه عامّ مرادٌ به الخصوص، "وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ": "الطُّورَ": المعهود، "خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ"، الأمر للوجوب، وفعل الأخذ مقيَّدٌ بشبه الجملة "بِقُوَّةٍ"، والتنكير للتفخيم، "ما" موصول عامّ، قال الطبريّ: "معنى الآية: وإذ أخذنا ميثاقكم أن خذوا ما آتيناكم بقوة، واعملوا بما سمعتم، وأطيعوا الله، ورفعنا فوقكم الطور من أجل ذلك"[166]، "وَاسْمَعُوا": أمر إيجاب.

"قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا" في هذا القول محادّة ومعاندة من أقبح القبائح وأكبر الموبقات.

"وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ": القلوب نكرة مضافة تعمّ، والعجل المعروف، "بِكُفْرِهِمْ": بسبب كفرهم، قال السمين: "والواوُ في "أُشْرِبوا" هي المفعولُ الأولُ قامَتْ مقامَ الفاعلِ، والثاني هو "العِجْلَ" لأنَّ "شَرِبَ" يتعدَّى بنفسه فَأَكْسَبَتْه الهمزةُ مفعولاً آخرَ، ولا بد من حَذْفِ مضافَيْنِ قبلَ "العِجْلَ" والتقديرُ: وأُشْرِبوا حُبَّ عبادةِ العِجْلِ. وحَسَّن حَذْفَ هذين المضافين المبالغَةُ في ذلك، حتى كأنَّه تُصُوِّر إشرابُ ذاتِ العِجْل. والإشرابُ: مخالَطَةُ المائع بالجامِدِ، ثم اتُّسِعَ فيه حتى قيل في الألوان نحو: أُشْرِبَ بياضُه حُمْرةً. والمعنى: أنهم داخَلَهم حُبُّ عبادتِه، كما داخَل الصبغُ الثوبَ"[167].

"قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ": "قُلْ الأمر للوجوب، "ما" موصولة تعمّ، إِيمَانُكُمْ": نكرة مضافة تعمّ، وفي هذا التذييل تقريع وتوبيخ أليم.

---

[165] سورة البقرة آية (93)

[166] انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج2/ 357

[167] السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج5/2

فائدة في التحذير من الفتن:

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ فَقَالَ: أَيُّكُمْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ الْفِتَنَ؟ فَقَالَ: قَوْمٌ نَحْنُ سَمِعْنَاهُ. فَقَالَ: لَعَلَّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَجَارِهِ، قَالُوا: أَجَلْ، قَالَ، وَلَكِنْ أَيُّكُمْ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ الْفِتَنَ الَّتِي تَمُوجُ مَوْجَ الْبَحْرِ، قَالَ: حُذَيْفَةُ فَأَسْكَتَ الْقَوْمُ، فَقُلْتُ: أَنَا. قَالَ: أَنْتَ لِلَّهِ أَبُوكَ، قَالَ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ؛ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ.

قَالَ أَبُو خَالِدٍ فَقُلْتُ لِسَعْدٍ يَا أَبَا مَالِكٍ مَا أَسْوَدُ مُرْبَادًّا قَالَ شِدَّةُ الْبَيَاضِ فِي سَوَادٍ قَالَ قُلْتُ فَمَا الْكُوزُ مُجَخِّيًا قَالَ مَنْكُوسًا[168].

[168] رواه مسلم ح207.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآَخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[169]

في هذه الآية معجزة ظاهرة، وحجة بالغة على صدق الرسالة الخاتمة، فقد أُمر اليهود بأن يتمنَّوا الموت إن كانوا صادقين، وهو أمرٌ سهلٌ لا يحتاج إلى جهدٍ، وقطع القرآن الكريم بأن اليهود لن يتمنّوا الموت أبدًا، فلم يثبت أن اليهود أجابوا رسول الله إلى ما دعاهم إليه مع أنهم لو فعلوا ذلك، لقالوا لقد زعمت أننا لن نتمنّى الموت أبدًا، وقد فعلنا!

لكنّهم لم يفعلوا؛ لأنهم يعلمون أنهم كاذبون معاندون، وأن محمّدًا صلى الله عليه وسلم صادق، فآثروا التولّي والوقوع في الفضيحة على الدخول في هذه المهلكة.

"قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآَخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ":

"قُلْ" الأمر للوجوب، أداة الشرط "إِنْ" لما يستبعد وقوعه، "الناس": "أل" للعموم، ويجوز أن تكون للعهد يعني المسلمين، "فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ": الأمر للتحدي لدحض زعمهم وفضحهم، "إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ": أداة الشرط "إِنْ" لما يستبعد وقوعه، ومفهومه: إن لم تكونوا صادقين فلن تفعلوه.

"وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ":

"وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا": ورد النفي بحرف "لن"، لنفي ما يستقبل من الأفعال، والفعل "يَتَمَنَّوْهُ" في سياق النفي يعمّ كل أنواع التمنيات، وقيّد نفي التمنّي بالظرف "أَبَدًا" الدالّ على التأبيد، "بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ": الباء لسببية، و"ما" موصول يعمّ كلَّ ما قدموه لأنفسهم من الذنوب، "أيديهم" نكرة مضافة تعمّ، وعبر بالجزء عن الكلّ، "وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ" "الظَّالِمِينَ" صفة صريحة تعم كل ظالم، وفيها تقريع لليهود وتعريض بهم.

[169] سورة البقرة آية (94-95)

قال الله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[170].

تعرض الآية أزمة نفسية خطيرة، ومرضًا من أمراض القلوب، وهو الحرص على طول الحياة كيفما كانت تلك الحياة. إن هذا الحرص القبيح يورد أهله الذُّل والمسكنة، ويورثهم غضب الله تعالى.

إن الحياة الدنيا محمودة ممدوحة بمقدار ما تقدِّمه للإنسان من فرص جلب المصالح ودرء المفاسد، فمن جعل صلاح الحياة وطيبها ونفعها محلًّا للحرص، فهو العاقل الرشيد، ومن حرص على الحياة من غير مراعاة لموازين الشرع في الاعتبار والإلغاء، والتقديم والتأخير، والقبول والرفض ضلّ، وزلّ، وذلّ، واقترف القبائح، الرذائل، وترك المعالي والفضائل.

واليهود بسبب طمعهم وقلّة عقولهم أحرص الناس على طول حياة، سواء أكانت حياة دنيئة خسيسة أم غير ذلك، ولذا ضُربت عليهم الذلّة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله تعالى. ومن تبعهم فهو منهم.

"وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ" من الوجدان العقليّ وهو مختصٌّ بما يقع بعد التجربة، والاختبار، و"الناس": عامّ، "حياة": نكرة تدلّ على الإطلاق أي: حياة كيفما كانت، وقيل: النكرة موصوفة بصفة مقدرة يدلّ عليها السياق، والتقدير: حياة مديدة، قال الزمخشريّ: "لم قال: عَلى حَياةٍ بالتنكير؟ قلت: لأنه أراد حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة"[171]، وقال السمين: "وقيل: إنَّ ذلك على حَذْفِ مضافٍ تقديرُه: على طُولِ حياةٍ، والظاهرُ أنه لا يَحتاج إلى تقدير صفةٍ ولا مضافٍ، بل يكونُ المعنى: أنَّهم أحرصُ الناسِ على مطلقِ حياةٍ"[172]. "وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ": "ومن الذين أَشْركوا" شبه الجملة: خبر مقدَّم، والمبتدأ مقدَّر: قومٌ أو فريقٌ، وهذا من الأماكن المطَّردِ فيها حَذْفُ الموصوفِ بِجُمْلَتِه، كقولِه:

---

[170] سورة البقرة آية (96)

[171] الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج168/1

[172] السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج11/2

﴿وَمَـا مِنَّـآ إِلاَّ لَـهُ مَقَـامٌ مَّعْلُـومٌ﴾[173]، و"يَـوَدُّ أحـدُهم" صـفة للمبتـدأ المقـدَّر،[174]. "الـذين": موصـول عـام، "أحـدهم": كـل واحـد مـنهم، "وَمَـا هُـوَ بِمُزَحْزِحِـهِ مِـنَ الْعَـذَابِ أَنْ يُعَمَّـرَ" الضـمير "هـو" عائـدٌ علـى المصـدر المفهـوم مـن السـياق "التعمـير" و"العـذاب" يعـمّ العـذاب الـذي يفـرّون منه، "وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ" "ما": موصول يعم، وهذه الجملة للتهديد والوعيد.

[173] سورة الصافات آية (164)

[174] انظر: السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج11/2

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ * وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾[175].

القرآن الكريم أساليبه محكمة موجزة في إحقاق الحقّ، وإزهاق الباطل، ومعالجة المشكلات، ودحض الشبهات، وإطفاء نار الفتن. والآيات تَرُدّ على افتراء اختلقه اليهودُ، واتخذوه حجة؛ للامتناع عن الاستجابة لدعوة الإسلام، قال ابن عاشور: "ومن عجيب تهافت اعتقادهم أنهم يثبتون أنه مَلَكٌ مرسل من الله، ويبغضونه، وهذا من أحط دركات الانحطاط في العقل والعقيدة، ولا شك أن اضطراب العقيدة من أكبر مظاهر انحطاط الأمة؛ لأنه ينبئ عن تظافر آرائهم على الخطأ والأوهام"[176]. وقد دحض القرآن الكريم ادعاءهم بأسلوب رفيع جليل، وأرسل على المفترين من اليهود وعلى من سلك مسلكهم من الكافرين ما يستحقونه من الوعيد الشديد.

وقد جاء الحديث رفيعًا كريمًا، فزكّى جبريل عليه السلام ورفع شأنه، ورفع شأن الرسالة والرسول محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبان الخير العظيم الذي ينزل به جبريل عليه السلام من عند الله تعالى من أجل تحقيق مصالح المؤمنين في العاجل والآجل، ثمّ أعلن عداوته على الكافرين أجمعين. فالله تعالى يغار على كتابه، وأوليائه، وينصرهم، ويدافع عنهم، فطوبى للمؤمنين، وويلٌ للكافرين!

"قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ" الأمر للوجوب، وسبب النزول كما قال الإمام الطبريّ: "أجمع أهل العلم بالتأويل جميعًا على أن هذه الآية نزلت جوابًا لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم"[177].

"مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ" "من": اسم شرط يعمّ، وجواب الشرط مقدّر يستدلّ عليه بجواب الشرط في الآية الثانية، وقال السمين الحلبيّ: "وجوابُهُ محذوفٌ تقديرُه: مَنْ كان عدوًّا لجبريلَ

---

[175] سورة البقرة آية (97-99)

[176] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج599/1،

[177] انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج2/ 377-387

فـلا وَجْـهَ لعداوتِـه، أو فَلْيَمُـتْ غَيْظـاً ونحـوُه. ولا جـائز أن يكـونَ "فإنـه نزَّلـه" جـواباً للشـرطِ لـوجهين: أحـدُهما مـن جهـةِ المعـنى، والثـاني مـن جهـةِ الصـناعةِ، أمـا الأول: فـلأنَّ فِعْـلَ التنزيـلِ متحقِّـقُ المضِـيّ، والجـزاءُ لا يكـون إلاَّ مسـتقبلاً، ولقائـلٍ أن يقـولَ: هـذا محمـولٌ علـى التبيـين، والمعـنى: فقـد تبـيَّن أنـه نَزَّلـه، كمـا قـالوا في قولـه: ﴿وَإِنْ كَـانَ قَمِيصُـهُ قُـدَّ مِـن دُبُـرٍ فَكَـذَبَتْ﴾[178]. ونحـوِه. وأمَّـا الثـاني: فلأنـه لا بـد مـن جملـة الجـزاء مِـن ضـميرٍ يعـودُ علـى اسـمِ الشـرطِ، فـلا يجـوزُ: مَـنْ يَقُـمْ فزيـدٌ منطَلِـقٌ، ولا ضـميرَ في قولِـه: "فإنَّـه نَزَّلـه" يَعُـودَ علـى "مَـنْ"، فـلا يكـونُ جـواباً للشرط"[179].

"فَإِنَّـهُ نَزَّلَـهُ عَلَـى قَلْبِـكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَـدِّقًا لِمَـا بَـيْنَ يَدَيْـهِ" الفـاء عاطفـة علـى جـواب الشـرط المقـدّر، و"مـا": موصـول يعـمّ، "وَهُـدًى وَبُشْـرَى لِلْمُـؤْمِنِينَ": "وَهُـدًى وَبُشْـرَى" مقصـدان مـن مقاصـد تنزيـل الرسـالة، و"لِلْمُـؤْمِنِينَ" الـلام لبيـان أن المصـلحة للعبـاد، والمـؤمنين: وصـف صـريح مقـترن ب"أل" يشمل جميع المؤمنين، وفيه إيماء إلى علة استحقاقهم هذا الخير، ألا وهي الإيمان.

"مَـنْ كَـانَ عَـدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِـهِ وَرُسُـلِهِ وَجِبْرِيـلَ وَمِيكَـالَ" "مـن": اسـم شـرط عـامّ، "وَمَلَائِكَتِـهِ وَرُسُـلِهِ" نكـرتان مضـافتان تعمّـان، "وَجِبْرِيـلَ وَمِيكَـالَ" نـصّ عليهمـا للتقـديم والتكـريم وهـو مـن ذكـر الخـاصّ بعـد العـامّ. "فَـإِنَّ اللَّهَ عَـدُوٌّ لِلْكَـافِرِينَ" "أل" للعمـوم، يعـمّ الكـافرين، والصـفة الصـريحة تـومئ إلى علـة العـداوة، وهـي الكفـر. والفـاء واقعـة في جـواب الشـرط، ورابـط جملـة جـواب الشـرط باسـم الشـرط هـو الاسـم الظـاهرَ "الكـافرين" القـائم مَقـام المضـمرِ، وكـان الأصـلُ: فـإنَّ الله عَـدُوٌّ لهـم، فـأتى بالظـاهرِ تنبيهـاً علـى العلـةِ، ويجـوز أن يُـرادَ بالكـافرين العمـوم، والعمـوم مـن الـروابط، لاندراجِ الأولِ تحتَه[180].

"وَلَقَـدْ أَنْزَلْنَـا إِلَيْـكَ آيَاتٍ بَيِّنَـاتٍ وَمَـا يَكْفُـرُ بِهَـا إِلَّا الْفَاسِـقُونَ" قـال ابـن عاشـور: "وفي الانتقـال إلى خطـاب النـبي صـلى الله عليـه وسـلم إقبـال عليـه وتسـلية لـه عمـا لقـي مـنهم وأن مـا أنـزل إليـه لا يكـذب بـه إلا مـن لا يؤبـه بتكذيبـه؛ لكـون هـذا المنـزل دلائـل واضـحة لا تقصـر عـن إقنـاعهم

---

[178] سورة يوسف آية (26)

[179] السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج2/16-17

[180] انظر: السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج2/22

بأحقيتها ولكنهم يظهرون أنفسهم أنهم لم يوقنوا بحقيتها"[181].

وفي الآية تمجيد وتكريم للقرآن، وذمٌّ لمن يكفر بآيات الله تعالى. "وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ"، "وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ" "ما" نافية، والفعل بعدها يعمّ كلّ أنواع الكفر، والفاسقون عامّ. والفسق: خروج الإنسان عما حدّ له.

[181] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج624/1

قال الله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[182].

معاملة المجرمين بنقيض قصدهم دارئ لفسادهم. فقد أراد اليهود التطاول والتعالي بتلك الدعاوى، فكبّ الله تعالى وجوههم في الخزيّ، وجاءت هذه الآية تؤكّد ما قد سلف ذكرُه من خبث اليهود المتخذين الدينَ وسيلةً للفساد في الأرض، وكشفت ما استقرّ في طباعهم من نقض العهود، فلا أيمانَ لهم ولا إيمان.

والآية ترشد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإعراض عنهم بدلالة الإشارة، فكأنها تقول: إن هؤلاء القوم لا عهد لهم، ولا إيمان لهم، فلا اعتبار للمجرمين ولا ثقة بهم.

"أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ"، قال الرازي: المقصود من هذا الاستفهام الإنكار وإعظام ما يقدمون عليه؛ لأن مثل ذلك إذا قيل بهذا اللفظ كان أبلغ في التنكير والتبكيت. فكأنه تعالى أراد تسلية الرسول عند كفرهم بما أنزل عليه من الآيات بأن ذلك ليس ببدع منهم، بل هو سجيتهم وعادتهم وعادة سلفهم على ما بيّنه في الآيات المتقدمة من نقضهم العهود والمواثيق حالًا بعد حال[183]. و"كلّما": ظرف عامّ، "عَهْدًا" للإطلاق.

"بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ" الفعل في سياق النفي يعمّ، أي: لا إيمانَ لهم. وفي هذا العطف قولان، أحدُهما: أنه من بابِ عطفِ الجملِ وهو الظاهرُ، وتكونُ "بل" لإضرابِ الانتقالِ لا الإبطالِ، والثاني: أنه يكونُ من عطفِ المفرداتِ ويكونُ "أكثرُهم" معطوفاً على "فريقٍ"، وفائدةُ هذا الإضرابِ على هذا القولِ أنه لما كان الفريقُ ينطلِقُ على القليلِ والكثيرِ وأَسْنَدَ النَّبْذَ إليه، وكان فيما يتبادَرُ إليه الذهنُ أنَّه يُحْتمل أَنَّ النابذين للعَهْد قليلٌ بَيَّن أنَّ النابذين هم الأكثرُ دَفْعاً للاحتمال المذكورِ، والنَّبْذُ: الطَّرحُ وهو حقيقةٌ في الأجْرام وإسنادُه إلى العَهْدِ مجازٌ[184].

---

[182] سورة البقرة آية (100)

[183] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج615/3

[184] انظر: السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج26/2

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[185].

استحوذ على قلوبهم الشيطان، فملأها غرورًا وشرورًا، وصرف أصحابها عن المكارم والفضائل، وساقهم إلى الخزي والباطل وهم يعلمون.

قال الطبري: "يعني جل ثناؤه بقوله: "ولما جاءهم"، أحبار اليهود وعلماءها من بني إسرائيل، "رسول": يعني بالرسول: محمدًا صلى الله عليه وسلم، "مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ" يعني به أن محمدًا صلى الله عليه وسلم يصدق التوراة والتوراة تصدّقه في أنه لله نبي مبعوث إلى خلقه، "نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ"، أي: أنهم جحدوه ورفضوه بعد أن كانوا به مقرّين، حسدًا منهم له وبغيًا عليه، "كِتَابَ اللَّهِ" التوراة، نبذوه، وهم يعلمون ما في التوراة من الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم وتصديقه. وهذا من الله جلّ ثناؤه إخبار عنهم أنهم جحدوا الحق على علم منهم به ومعرفة، وأنهم عاندوا أمر الله، فخالفوا على علم منهم بوجوبه عليهم"[186].

"رَسُولٌ" مقيَّد بالصفات بعده، فبدأ بوصفه ب "مِنْ عِنْدِ اللَّهِ" وهو شبه جملة لعظمة الإضافة إلى لفظ الجلالة، ثمّ وصفه باللفظ المفرد: "مصدّقًا"، فقدَّم أعظم الوصفين، "لِمَا مَعَهُمْ": "ما" موصول يعمّ، "نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ": النبذ طرح الشيء بعد إمساكه، "فَرِيقٌ" مطلق مقيّد بصفة كونهم من الذين أوتوا الكتاب، وفي هذا توبيخ وتقريع عظيم، "الذين" موصول يعمّ، "الكتاب": "أل" للعهد، أي: الكتاب المعهود، وهو التوراة، "ظُهُورِهِمْ": نكرة مضافة تعمّ، وهو كما قال الزمخشريّ: "مَثَل لتركهم وإعراضهم عنه، مُثِّل بما يرمى به وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات إليه"[187]، "كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ": الفعل عامّ، أي: كأنهم لا علمَ لهم.

---

[185] سورة البقرة آية (101)

[186] انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج2/ 377-387

[187] الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج171/1

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[188].

من سنن الله تعالى أن مَن أعرض عن الحقِّ، اشتغل بالباطل، قال السَّعديّ: "من ترك ما ينفعه، وأمكنه الانتفاع به فلم ينتفع، ابتلي بالاشتغال بما يضرُّه، ومن لم ينفق ماله في طاعة الله، أنفقه في طاعة الشيطان، ومن ترك الذلَّ لربِّه، ابتلي بالذل للعبيد، ومن ترك الحق ابتلي بالباطل. كذلك هؤلاء اليهود لما نبذوا كتاب الله اتبعوا ما تتلو الشياطين وتختلق من السحر على ملك سليمان حيث أخرجت الشياطين للناس السحر، وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله وبه حصل له الملك العظيم"[189].

"وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ": اتبع اليهودُ المعرضون عن الإسلام ما ورثوه من السحر الذي كانت تتلوه الشياطين في عهد سليمان، والتلاوة الدراسة والمتابعة، "ما" موصول يعمّ، "الشياطين": عامّ، "عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ": في عهد ملك سليمان.

"وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا"، تبرئة لسليمان عليه السلام ممّا افتراه السحرة، "ما" نافية، "الشياطين": عموم معهود، قال الطبريّ: "فنفى الله عن سليمان عليه السلام أن يكون كان ساحرًا أو كافرًا، وأعلمهم أنهم إنما اتبعوا – في عملهم بالسحر – ما تلته الشياطين في عهد سليمان، دون ما كان سليمان يأمرهم من طاعة الله، واتباع ما أمرهم به في كتابه الذي أنزله على موسى صلوات الله عليه"[190]. "يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ": "الناس": عام معهود، "السحر": المعهود، "ما": موصول يعمّ، "هَارُوتَ وَمَارُوتَ" اسما الملَكَين، "وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ": "ما":

---

[188] سورة البقرة آية (102)

[189] السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ج60/1

[190] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج2/ 413

نافيـة، الفعـل "يعلمـون": عـام "مـن أحـد": نكـرة في سـياق النفـي مسـبوقة ب "مـن" نـصٌّ في العمـوم، "حَـتَّى يَقُـولَا": تخصـيص بالغايـة لعمـوم الفعـل المنفـي: "يعلّمـان"، "إِنَّمَـا نَحْـنُ فِتْنَـةٌ فَـلَا تَكْفُـرْ": "إنمـا" حاصـرة، "لا": ناهيـة والنهـي للنصـح، "تكفـر": فعـل في سـياق النهـي يعـمّ، "فَيَتَعَلَّمُـونَ مِنْهُمَـا مَـا يُفَرِّقُـونَ بِـهِ بَـيْنَ الْمَـرْءِ وَزَوْجِـهِ": "مـا" موصـول يعـم، "المـرء": "أل": للاسـتغراق، "وَزَوْجِـهِ": نكـرة مضـافة إلى معرفـة تعـمّ عمومـا عرفيـا، "وَمَـا هُـمْ بِضَـارِّينَ بِـهِ مِـنْ أَحَـدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ": تخصـيص لعمـوم "مَـا يُفَرِّقُـونَ بِـهِ بَـيْنَ الْمَـرْءِ وَزَوْجِـهِ"، "وَيَتَعَلَّمُـونَ مَـا يَضُـرُّهُمْ وَلَا يَـنْفَعُهُمْ" "مـا": موصـول يعـم، قـال الطـبريّ: "وكيـف يجـوز لملائكـة الله أن تعلـم النـاس التفريـق بـين المرء وزوجه؟ أم كيف يجوز أن يضاف إلى الله تبارك وتعالى إنزال ذلك على الملائكة؟

قيـل لـه: إن الله جـل ثنـاؤه عـرف عبـاده جميـع مـا أمـرهم بـه وجميـع مـا نهـاهم عنـه، ثم أمـرهم ونهـاهم بعـد العلـم مـنهم بمـا يـؤمرون بـه وينهـون عنـه. ولـو كـان الأمـر علـى غـير ذلـك، لمـا كـان للأمـر والنهـي معـنى مفهـوم. فالسـحر ممـا قـد نهـى عبـاده مـن بـني آدم عنـه، فغـير منكـر أن يكـون جـل ثنـاؤه علمـه الملكـين اللـذين سماهمـا في تنزيلـه، وجعلهمـا فتنـة لعبـاده مـن بـني آدم – كمـا أخـبر عنهمـا أنهمـا يقـولان لمـن يـتعلم ذلـك منهمـا: "إنمـا نحـن فتنـة فـلا تكفـر"؛ ليختـبر بهمـا عبـاده الـذين نهـاهم عـن التفريـق بـين المـرء وزوجـه، وعـن السـحر، فـيمحص المـؤمن بتركـه الـتعلم منهمـا، ويخـزي الكـافر بتعلمـه السـحر والكفـر منهمـا. ويكـون الملكـان في تعليمهمـا مـن علمـا ذلـك لله مطيعـين، إذْ كانا عن إذن الله لهما بتعليم ذلك من علماه"[191].

"وَلَقَـدْ عَلِمُـوا لَمَـنِ اشْـتَرَاهُ مَـا لَـهُ فِي الْآَخِـرَةِ مِـنْ خَـلَاقٍ": "مـن": موصـول يعـم، "مِـنْ خَـلَاقٍ" "مـن" صـلة للتنصـيص علـى العمـوم، "خـلاق": نكـرة في سـياق النفـي مسـبوقة ب "مـن" فهـي نـص في العمـوم، أي: مـا لـه في خـير الآخـرة مـن حـظّ ولا نصـيب؛ لأنهـم باعـوا دينـهم بعـرض مـن قليل يكسبونه من السحر واتّباعِ الشياطين، فخسروا أخراهم.

"وَلَبِـئْسَ مَـا شَـرَوْا بِـهِ أَنْفُسَـهُمْ لَـوْ كَـانُوا يَعْلَمُـونَ" "مـا": موصـول يعـمّ، "أَنْفُسَـهُمْ": عـامّ، "لـو كـانوا يعلمون علمًا نافعًا[192].

[191] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج2/ 413

[192] انظر: رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج335/1

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[193].

ظاهر الآية حسرة وعذاب على اليهود المعرضين عن الإيمان والتقوى، وباطنها رحمة، وبشرى، وهدى إلى سنّة كريمة من سنن الله تعالى ترغيبًا وتقريبًا لمن كانوا يعلمون. إن الآية تهدينا إلى سنّة العطاء الجميل، والفضل الجزيل، فثَمَّ مَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لا يدرك القلب لها حدًّا، ولا يُحصي لمكارمها عدًّا؛ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[194]. ﴿إنها تضع بين يدي من آمن واتقى مفاتيح بركات السماء والأرض ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[195].

وهذه الآية خاتمة سِجلٍّ طويل من دعوة بني إسرائيل، كشف الله تعالى كيدهم ومكرهم وفسادهم، وفنَّد شبهاتهم، ودمغ باطلهم، فما أبقى لهم من باقية، وتركهم كأعجاز نخلٍ خاوية. ومع ذلك فهذه الآية تفتح باب الرجاء الجميل على مصراعيه لمن أراد الإنابة والتوبة والفلاح.

"وَلَوْ أَنَّهُمْ آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ"، "وَلَوْ" حرف يدلّ على امتناع الجزاء "المثوبة" لفقد شرطها "الإيمان والتقوى، ويحتمل أن تكون "لو" للتمنّي، "مثوبة": التنكير للإطلاق، وقد وصفت بكونها من عند الله تعالى، وفي هذا الوصف تفخيم وتكريم وتحبيب. وقد جيء بلفظ المثوبة؛ ليعلم العامل أن كلّ ما يقدّمه راجع إليه، ومثاب عليه، فيحرص على هذه المعاوضة الرابحة، قال الإمام الطبريّ: "المثوبة في كلام العرب، مصدر من قول القائل: أثبتك إثابة وثوابا ومثوبة. فأصل ذلك من: "ثاب إليك الشيء" بمعنى: رجع. ثم يقال: "أثبته إليك": أي، رجعته إليك ورددته. ثم جعل كل معوضٍ غيرَه من عمله أو هديته أو يدٍ له سلفت منه إليه: مثيبًا له. ومنه "ثواب" الله عز وجل عبادَه على أعمالهم، بمعنى إعطائه إياهم العِوض والجزاء عليه، حتى يرجع إليهم بدل من عملهم الذي عملوا له"[196].

---

[193] سورة البقرة آية (103)

[194] سورة المائدة آية (65)

[195] سورة الأعراف آية (96)

[196] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج458/2

وأما فائدة العدول عن جواب لو الشرطية بالفعل، فقد ذهب الزمخشريّ إلى أن مقصد جواب الشرط بالجملة الاسميَّة هو الدلالة على الثبوت والدوام[197]. وفي قوله تعالى "لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" توبيخ لمن أعرضوا عن دين الله تعالى.

[197] انظر: الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج174/1